

روايات مصرية للجيب

4

رقصة الموت

سافاري

www.dvd4arab.com
Hany3H

مقدمة

(سافارى) مصطلح غربى تم تحريفه عن كلمة (سفرية) الغربية .. وحين يتحدثون عن الـ (سافارى) فهم يتحدثون عن رحلات صيد الوحوش فى أدغال (إفريقيا) ..

لكن وحدة (سافارى) التى سنقابلها هنا كانت تصطاد المرض فى القارة السوداء .. ووسط اضطرابات سياسية لا تنتهى .. وبيئة معادية .. وأهال متشككين .. بطلنا الذى سنقبله دوماً ، ونألفه ، ونتعلم أن نحبه هو د. (علاء عبد العظيم) .. شاب مصرى ككل الشباب .. اختار أن يبحث عن ذاته بعيداً وسط أدغال (الكامبيرون) ، وفى بيئة غريبة وأمراض أغرب وأخطار لا تنتهى فى كل دقيقة ..

وفى هذه الروايات نقرأ مذكرات د. (علاء) .. نعيش معه فى ذلك العالم العجيب الذى لم تتجح الحضارة فى تبديل معالمه ..

سنلقى الكثير من الفيروسات القاتلة .. والسحرة المجائنين .. وأكلة لحوم البشر .. والمرترقة الذين

لا يمزحون .. وسارقى الأعضاء البشرية ..
والعلماء المخابيل ..
سنلقى كل هذا .. ونلقى محاولات طبيينا الشاب كى
يظل حياً .. وكى يستطيع فى الوقت ذاته أن يظل
طبيباً ..

تعالوا نلحق بوحدة (سافارى) فى (الكامبيرون) ..
تعالوا ندخل الأدغال ونجوب (السافانا) ونتسلق
البراكين ..
تعالوا نواجه المرض مع فريق (سافارى) ..



www.dvd4arab.com
Hany3H

www.dvd4arab.com

١- بجن بلا قضبان ..

مرحباً بكم ..

أنتم جميعاً ها هنا معي كما أرى ، وإن هذا ليزيل
تلك الوحشة - الوحشة الرهيبة - التي تمزقت هنا في
هذه البقعة النائية ..

إنك لتجد عربياً في كل بقعة من بقاع الأرض ..
يمكنك أن تجد عرباً في (اليونان) .. في (أمريكا) ..
في (روسيا) .. في (نيوزيلندا) .. لكنى - أؤكد
لك - لن تجد عرباً ها هنا سوى وصديقي التونسي ..
صحيح أنني اعتدت المكان ، ولم تأكل النمرور
مؤخرتي بعد ..

صحيح أن لي أصدقاء أحبهم وآمل أن يحبوني ..
صحيح أن المغامرات السابقة أضفت على بعض
الشهرة هنا ..

لكنى ما زلت أشعر بالغربة .. أشعر باختلاف
الطباع ، بل واختلاف الدم ذاته بيني وبينهم .. إن الوطن
وأهله لمعان مبهمة ، لا يمكنك فهمها وأنت في وطنك ..

الجزء الأول

عن البعثات التي لا تعود

بقلم د. علاء عبد العظيم

« البعثات التي لا تعود .. ياله من موضوع شائق !
أعرف أنه يروق للجميع ، وأعرف أنهم سيقومون
بتأبيني كما يجب في نقابة الأطباء ، ولربما أطلقوا
اسمي على (درابزين) السلم هناك تخليداً لذكرى ..
« لكنى - في هذه المرة - أعتذر بصدق .. أرجوكم
أن تجدوا واحداً غيري ! »

بل ولربما سخرت منها .. لكنها ها هنا تغدو حقيقية
إلى حد أليم ...

لهذا أقول : مرحباً بكم ...

★ ★ ★

ومع بعد المسافة تبدو ظاهرة (التفسير التلسكوبى)
للأمور جلية واضحة .. كل شىء يتضخم ويغدو
مرعباً حين ترمقه من هنا ..
مثلاً خذ عندك خطابات أمى ..

لقد صارت أقل عددًا .. وأقل كيفة .. ثم إنها تحوى
تلك العبارات الغامضة المقتضية على غرار (ولا تنس
أن تدعولى) ، و (أتمنى ألا أموت قبل أن أراك) ،
و (لقد أطمأنت عليك على الأقل) !

تلك اللهجة التى توحى بشىء ما .. ومع البعد
تغدو يقيناً لا ريب فيه .. بالتأكيد هى تموت أو - على
أحسن الظروف - مصابة بسرطان قولون متقدّم ..

وتشدّ شعر رأسك ولحيّتك وتتمنى أن تستقيل كى
تلحق بها .. لكنهم لا يمزحون هنا .. لا إجازات إلا
حين يأتى وقتها .. ولا استقالات إلا بعد دفع راتب
ثلاثة أشهر كغرامة ..

تهرع إلى كابينة الهاتف وتسدّ مئات العملات
المعدنية .. لا تنس أنك فى (الكاميرون) .. ومجرد
سماع كلمة (آلو) من وطنك يكلفك مبلغاً لا بأس
به ..

لكن - كالعادة - يفشل ذلك الاختراع الأحمق فى
أداء مهمته .. فتغادر الكابينة وأنت تلعن (جراهام بل)
على عدم دقته فى اختراع الهاتف .. وتلوم الفقر
الذى جعل أمك لا تشتري جهاز (فاكس) ..
مثال آخر ؟ خذ عندك خطابات أخى ..

واضح تماماً من عباراته المنتقاة أنه تشاجر مع
امراته مراراً .. لكن (التفسير التلسكوبى للأحداث)
يجعلك على يقين بأنه طلقها أو - على أحسن تقدير -
أطار رقبتها بـ (مخرطة الملوخية) ..
وتوشك على الجنون ..

ترى هل هم يمارسون نوعاً من الرقابة على
خطاباتهم رحمة بأعصابك ، أم هم فعلاً بخير ؟ لن
تعرف إلا حين تذهب هناك ..

وحتى ذلك الحين عليك بالانهماك فى عملك فى
(سافارى) ..

من يدري ؟ لربما لا تحتضر أمى بعد .. ولربما لم
يقتل أخى زوجته بعد .. ولربما لم يتهاو بيتنا الأيل
للسقوط .. ولربما لم تنفجر مواسير الغاز .. ولربما
لم تدهم سيارة مسرعة أختى .. ولربما لم تحترق
عمتى بعد .. صحيح أنها احتمالات واهية .. لكنها
واردة برغم كل شيء !

★ ★ ★

لقد فررت إلى (الكاميرون) من مخاوفى !
من قال إننى فررت ؟ لقد فررت من المقلاة إلى
النار .. الفرار الحقيقي هو الذى تكون فيه أسرتك
معك ..

الفرار الحقيقي هو الفرار من وخزات القلق الدائمة
فى مؤخرة رأسك ، والسؤال الدائم : ماذا إذا ؟
عليك - يا (علاء) - أن تغرق همومك فى العمل
ها هنا ..

★ ★ ★

والعمل ها هنا كفيل بإغراق الأسطول السادس
الأمريكى كله وليس همومى فقط ..
إن الوطنيين ها هنا يحبون المرض إلى حد غير

مسبوق .. الفقر والجهل يتزوجان لينجبا ذرية تعسة
لا تكف عن الأئين .. أمراض من نوع خاص قوامها
العدوى وسوء التغذية .. لكنك لا تجد غالباً أمراض
المجتمع المترف مثل تصلب الشرايين ، وأمراض
القلب والاكتئاب .. إلخ ..

وتذكرت - فى مرارة - كيف كانوا يعالجون الأمراض
النفسية فى (أوروبا) بالمalaria .. حقاً ! كانوا
يحقتون المرضى بالمalaria .. وعندئذ كان المريض
لا يجد الوقت الكافى كى يجن .. وهو سلوك لا يخلو
من الصواب فى رأى .. إن المalaria هى العلاج الفعال
للاكتئاب ، ولأية أمراض نفسية أخرى ..

وكذا أمضيت الأيام بين تعلم ما كنت أجهله - وهو
كثير حقاً - وبين ممارسة بعض الأخطاء غير القاتلة ،
وبين تلقى لوم المدير على أشياء لا أذكرها بدقة ..
كانت هناك دورتان تدريبيتان على التعامل مع
(الإيدز) ثم مع (عمى الأنهار) فى (ياوندى) ..
وقد قمت بحضورهما .. وهى من الفرص النادرة التى
يمكنك فيها الفرار من وحدة (سافارى) .. الحق أن
(ياوندى) مدينة حديثة متقدمة ، ذات شوارع

كان هناك ذلك الاستدعاء المعروف عن طريق مكبر
الصوت ، يدعونا إلى قاعة الاجتماعات الكبرى على
وجه الأهمية ..

وعرفت على الفور أن هناك كارثة ..
لكن ما هي ؟

★ ★ ★

www.dvd4arab.com
Hany3H

www.dvd4arab.com

واسعة ممهدة ، ومن العسير على من يراها أن
يتصور أنها عاصمة هذا البلد المليء بالأدغال
والوحوش والقبائل البدائية ..

إنها مشكلة إفريقيا كلها : عدم التجانس .. الثراء
الفاحش والفقير المدقع جنباً إلى جنب .. العلم والجهل
جنباً إلى جنب .. الحداثة والتخلف جنباً إلى جنب ..
أنا لم أر (أوروبا) ولا (أمريكا) لكنى أعتقد أنهما
كالأواني المستطرقة هناك .. الماء ينتقل من
المستويات العالية إلى المستويات المنخفضة ..
لا توجد فوارق شاسعة بين الناس فيما يتعلق بالثراء
أو العلم أو الرعاية الصحية ..

لماذا؟ وما السبب؟ ما الذي فعلوه ولم نفعله نحن؟
للأسف تحتاج الإجابة عن هذا إلى خبير في
الاقتصاد والعلوم السياسية ، وليس طبيباً حديث السن
يتحسّس قدميه كي لا يقع في مستنقع الأوبئة هذا ..

★ ★ ★

بدأت القصة في أحد أيام الأربعاء .. وأنا لست
ممن يتشاءمون من أيام بعينها .. لكن يوم الأربعاء
هو - غالباً - اليوم الذي تبدأ فيه مصائبى ، فلا يشذ
عن القاعدة إلا لماماً ..

٢ - خذني يا بروفيسور ..

جلست في القاعة المكيفة ، وبحثت عن (برنادت) من حولي كي تجلس جوارى كدأبها ، لكنها كانت في ركن قصي تثرثر مع طبيب كندى أصلع ، ويبدو أنه كان يقول كلاماً شديد الطرافة .. لأنها لم تكف عن القهقهة وتغطية وجهها ..

تنهدت واسترخيت ، ورحت أرمق الجالسين .. لقد تأخر البروفيسور (بارتليه) مدير الوحدة عن القدوم ، لهذا راح الجميع يثرثرون .. ودوت بضغضضحكات .. فهذه الاجتماعات كانت فرصة لا بأس بها للفرار من عناء العمل لبضع دقائق ..

أخيراً تدرج البروفيسور الشحيم إلى المنصة .. مشيته الوقور التي هي محاولة لهزّ أقل قدر من الدهن في جسده ..

أمسك بمكبر الصوت وحياتا تحيته المعهودة :

- « كيف حالكم هناك ؟ »

دوت بعض ضحكات مفتعلة .. فعاد يقول :

- « أرجو ألا تكون هناك مشكلات .. وأن يكون أداؤكم كما أرجو .. »

ثم تناول بعض الأوراق من سكرتيرته الحسناء .. وقال :

- « الآن .. لقد جمعتم ها هنا بغرض البحث عن متطوعين .. هناك حملة يا سادة .. حملة لملاحقة وباء لعين في الأدغال ، كما كان يفعل الصيادون قديماً في رحلات الـ (سافاري) .. »

وأنزل عويناته على أنفه ليقرأ ما في الأوراق :

- ثمة تقارير من مركز الـ CDC وصلتنا أمس .. وكلها تتحدث عن تفاصيل وباء غريب ، بدأ يتحرك في (سوفلاي) .. »

وظطق بإصبعه كما يفعل زعماء (المافيا) في الأفلام ، فأظلمت قاعة العرض ، ورأينا على الشاشة خريطة ثابتة كبيرة لـ (الكامبيرون) وما حولها .. كان يشير إلى بلدة قريبة من الحدود مع (الكونغو) ..

قال بلهجة تقريرية رسمية :

- « هناك بعض قبائل (الكيكويو) في هذا القطاع ..

ومن الواضح أنهم نزحوا قديماً من (الكونغو) أو
(جمهورية إفريقيا الوسطى) ..
والتقارير التي لدينا مختلطة .. لكنها تتحدث عن
نوع من الجنون العام .. رقصات محمومة .. اعتداء
على السلطات .. تحفز عام للقتال .. عدد لا بأس به
من الوفيات .. لكنهم لا يسمحون بتشريح موتاهم .. »
ارتفع صوت وقور في الظلام يتساءل بفرنسية
مهشمة :

- « ولماذا لا تكون ثورة عادية جداً كثورات
(الماساي) ؟ »

أما الصوت فلعلك تميزته .. إنه صوت البروفسور
(آرثر شلبي) - بكسر الشين وتسكين اللام - يتحدث
وسط دخان سيجاره .. أما (الماساي) فلعلك لا تعرف
أنهم من أشرس وأشجع قبائل إفريقيا ، لكنهم ليسوا
في هذه المنطقة لحسن الحظ ..

قال (بارتليه) وقد تضايق نوعاً لمقاطعته :

- « إن (الكيكويو) يختلفون عن (الماساي)
يا بروفسور (شلبي) .. وأنت أول من يعرف هذا ..
إنهم مسالمون جداً .. ثم إنهم في بحبوحة من الرزق



وأنزل عويناته على أنفه ليقراً ما في الأوراق ،

والطعام الوفير ، ولا يوجد ما يدفعهم إلى التمرد ..
منظمة الصحة العالمية تعتقد بوجود وباء ما .. «
وظقق بإصابه ثانية .. لكن مشكلة ما جعلت
الشرايح تنحسر في جهاز العرض .. طقق مراراً لكن
لا شيء سوى صورة الخريطة إياها تظهر وتختفى ..
وتصاعدت ضحكات مكتومة مما أثار غيظه ..
قال في فتور :

- « يبدو أن لدينا مشكلات مع جهاز العرض ..
حسن .. كنت سأعرض عليكم صور العلماء الستة
الذين أرسلتهم المنظمة إلى (سوفلاي) .. والذين لم
يعد أحد منهم ، ولا يعرف أحد شيئاً عنهم .. «
دوى صوت أحدهم - أتراه (مايرز) ؟ - يتساءل :
- « وما هي المشكلة في إرسال طائرة هليوكوبتر
هناك ؟ »

- « أنتم تعرفون القلاق على الحدود .. إن احتمال
سقوط الطائرة التي سنرسلها هو سبعون في المائة ..
لهذا صار الأمر على عاتقنا ، وصار من الضروري أن
نرسل حملة أخرى .. «

ثم ثبت عينيه على الصف الأول من الجالسين ،
وقال العبارة التي انتظرناها جميعاً :

- « معنى هذا أنني انتظر منكم أن تتحمسوا ! «
وعقد كفيه بلهجة متحبة وقال :
- « من أول الشجعان الذي سينهض قائلاً : خذنى
يا بروفيسور ؟ »

بدا لي هذا الأسلوب مبتذلاً .. كما كانت تفعل عمتي
معي وسنى ثلاث سنوات .. تعقد كفيها وتقول : « من
الصبي اللطيف الذي سيلتهم القنبيط ولا يترك شيئاً في
طبقه ؟ »

والنتيجة دائماً واحدة : لا أحد يستجيب .. لاجماس
من أى نوع ..
فقط رحنا نتحاشى نظراته ، وقد اكتشف كل منا أن
له قدمين ، وأن في كل قدم منهما حذاء ..
عاد يقول في لهجة لائمة :

- « هيه ؟ يبدو أنني سأشعر بخيبة الأمل .. «
هنا تطوع (هاتز شيفرن) أستاذ علم المناعة
بالكلام .. نهض وفي كياسة قال ما نتمنى جميعاً
قوله :

- « مسيو (بارتليه) .. إن المهمة تبدو خطيرة
حقاً .. هناك علماء مفقودون ، ونحن لا نعرف شيئاً

تقريبًا عن (الكيكويو) فى (الكاميرون) .. إن
الاحتمالات كثيرة ، ومن الواضح أننا سنتحرك دون
حماية السلطات .. لهذا لا تطالب الشباب بما هو أكثر
من طاقتهم .. »

أضاف (آرثر شلبى) مؤمنًا :

- « إن من يقبل هذه المهمة شجاع كالأسود ..
لكن من يرفضها ليس بالضرورة جبانًا رعديدًا .. »
هنا عاد (بارتليه) يرمقنا فى اهتمام .. وعاد
يقول :

- « حسن .. ما زلت بانتظار رأى شباب الوحدة .. »
- هنا ارتفعت يد .. يد صفراء .. وسمعنا صوتًا
يقول بفرنسية (يابانية) رديئة جدًا :

- « أنا معكم .. خذنى يا (بروفيسور) ! »
نظر الجميع ليروا من هذا الأحمق .. لكنى تعرفت
الصوت فورًا .. إنه (ساتو أوشيمو) الطبيب الباطنى
اليابانى .. ويبدو أنه لم يتخلص بعد من روح
(الكاميكاز) الانتحارية .. لقد كان (الكاميكاز)
اليابانيون - فى الحرب العالمية الأخيرة - يركبون
الطوربيد ليفجروه فى المدمرات الأمريكية ، وبعد

الحرب صار من بقى منهم أحياء سائقى سيارات أجرة
ينسفون الزبائن عاثرى الحظ !

- « هذا رائع يا د . (أوشيمو) .. من أيضًا ؟ »
هنا ارتفعت يد أنثوية رقيقة ، وسمعت صوت
(برنادت) الرقيق بدوره :

- « وأنا معكم يا بروفيسور .. »
الحمقاء ! ليس هذا من حقها .. ولكن .. ليس من
حقى كذلك أن أمنعها .. فالحقيقة المؤسسية هى أن
المرء لا يملك منع فتاة ليست أمه ولا أخته ولا خطيبته
ولا زوجته ولا ابنته ، من عمل أى شىء ..
جاء دور اليد الثالثة ، وكانت لـ (بسام) .. ولم أجد
الوقت الكافى لمنعه ..

أما اليد الرابعة فكانت لـ (آرثر شلبى) نفسه ..
غريب هذا .. أحيانًا يبدو لى هذا الرجل شجاعًا حكيمًا ..
- « نرحب بك فى الفريق يا بروفيسور (شلبى) .. »
- وصفق الجميع فى انفعال .. الواقع أن الإشعاع
الـ (سايكوفيزيائى) قد تسرب إلى النفوس أخيرًا ،
وجعل هناك جوارًا من الحماس وميلًا لا نهاية له للعطاء
غير المحدود ..

لكن الشعاع لم يتسرب إلى روحى لحسن الحظ .
هنا سمعت البروفسور (بارتليه) يقول ، وعيناه
تفتشان فى الصفوف :

- « ثمة واحد لم يتطوع بعد ، وكنت أتوقع أن
يكون أول المشاركين .. صديقنا المصرى .. دكتور
(عبد العظيم) .. لقد شارك فى كل حملاتنا الناجحة
السابقة .. »

- ونظرت لى عيون متسائلة كثيرة ..
رفعت يدي اليمنى ، وابتسمت ابتسامة دبلوماسية
قائلاً :

- « ! »

كان هذا هو ما سمعه القوم منى .. لأنى لم أقل
شيئاً تقريباً .. فقط حركت شفتى بكلمات ما لا معنى
لها ، لكنها تحمل معنى الاعتذار .. « حقاً لا أجد فى
نفسى رغبة للاشتراك .. » أو شىء من هذا القبيل ..
تصاعدت شهقات الدهشة .. وسمعت ضحكة
سخرية أو ضحكتين .. لكنى كنت قد صممت على
الرفض ، دون إعطاء تفسيرات ..

كان النصاب قد اكتمل ، فقال البروفسور (بارتليه) :

- « حسن .. على الستة المتطوعين أن يلحقوا بى
فى مكتبى ، كى نناقش ما أتوقعه منهم فى هذه
المهمة .. »

وغادرنا القاعة فى كثير من الفوضى ..
لكنى كنت راضياً عن نفسى أيما رضا .. فمن
الشجاعة أن تقبل حملة كهذه ، لكن الأكثر شجاعة أن
ترفضها ..

الشجاعة العظمى هى ألا تخشى أن تبدو جباناً ! ألا
يجرفك حماس الآخرين الأهوج الذى يدفعك لتكون
منهم ..

وكما توقعت سألتنى (بسام) على الباب :

- « كنت أظنك تحب هذه الأشياء .. »

هزرت كتفى ، وأنا أراجع لأسمح لطبيب ضخم
الجثة بالمرور :

- « أحبها نعم .. لكنى جئت ها هنا من أجل العلم
ومن أجل تحسين دخلي .. ولم آت كى أموت .. إن
مهنتى طبيب ، وليس من شأنى أن أقضى حياتى فى
الأدغال أفر من التماسيح ، ويحاصرني قراصنة
الحرب البيولوجية .. »

ابتسم من وراء شاربه الكثر ، وعاد يسألنى :
- « هل تعتقد حقاً أنها رحلة بلا عودة ؟ »
- كيف لى أن أدرى ؟ لكنها بالتأكيد رحلة مرهقة
كثيرة .. »

وتفرق الجميع .. واتجه كل إلى عمله الذى كان
يزاوله قبل الاجتماع ، فعدت أنا إلى عيادة الأمراض
الباطنية مع د. (دولالوبولو) .. وهو من الأطباء
الأفارقة المعدودين هنا كما تعلم ..

تباً ! لو أنهم يدفعون لى قرشاً عن كل حالة ملاريا
أراها ها هنا لصرت مليونيراً منذ عام .. والملاريا هنا
تأخذ كل الصور المريعة التى كنا نطالعها فى كتب
الطب : ملاريا مخية .. حمى الماء الأسود .. ملاريا
خبیثة .. حمى الصفراء المتقطعة ..

لكن الملاريا هنا - لحسن الحظ - تستجيب لعقار
الـ (كلوروكين) وهى ظاهرة نادرة ، بعد ما تعلمت
الملاريا مقاومة هذا العقار فى كل أرجاء الأرض
ما عدا غرب إفريقيا .. والحقيقة المريعة هى أن
الملاريا تتحول يوماً بعد يوم إلى مرض بلا علاج ..
ويواصل العلم ركضه ، وتواصل الملاريا ركضها

فى سباق محموم .. وكلما ابتكر العلماء مصيدة فئران
أفضل ، جاء إلى الوجود فأر أكثر ذكاء بما لا يقاس ...
جلست جوار د. (دوالا) أراقبه وهو يفحص
المرضى ، ويصدر تعليماته للممرضة بأخذ عينات
الدم ، بينما أقوم أنا بوضعها على شرائح ..

سألنى دون أن ينظر لى :
- « لمَ لمَ تلحق بهؤلاء ؟ »
- « سئمت لعب دور (طرزان) .. لم ترسلنى
أمى ها هنا لهذا الغرض .. »

- « أنت ذكى .. »
- « ولماذا ؟ »
- « لأن الطبيب الذى يرفض زيارة (الكيكويو)
حين ينتابهم الهياج ، لهو طبيب ذكى حقاً ! »

تفحصت الشريحة التى قمت بصبغها تحت عدسة
المجهر .. كنت قد تعلمت أخيراً أن أنظر بعينين
مفتوحتين ... فالنظر بعين واحدة يرهق العينين إلى
حد مروع .. ابتلعت ريقى وسألته :

- « من هم (الكيكويو) ؟ أعنى ما هى عاداتهم ؟ »
- « إنهم مسالمون دوماً .. لكن ... »

٢ - عن (الكيكويو) ..

- « هم أصلاً من (كينيا) .. مسالمون نشيطون لكنهم ماكرون وقادرون على أن يخدعوك دون أدنى تأنيب ضمير .. وهم وثنيون في عقيدتهم الدينية يؤمنون بالسحر بشدة ، وقليلون هم المسافرون الذين ظفروا منهم بصورة فوتوغرافية .. فهم - (الكيكويو) ككل البدائيين يؤمنون بأن الكاميرا تسرق أرواحهم منهم ..

« انهم صداع مستمر للحكومات بسبب عاداتهم في الزراعة .. يحرقون غابة بأكملها ثم يزرعون الذرة والبطاطا مكانها ، وأدى هذا إلى اضمحلال الغابات في كل مكان يوجدون فيه ..

« وعامة هم يسوون خلافاتهم فيما بينهم ولا يتقنون بالحكومة أبداً .. »

قلت لـ (دوالا) في عدم فهم :

- « ما تقوله ينطبق على كل البدائيين ، ولست أرى

- « إيجابى ! »

قلت لها مقاطعاً .. فنظر متسائلاً ، وسرعان ما فهم أنني أتكلم عن الشريحة التي أفحصها .. فعاد يقول في شيء من العتاب :

- « .. حينما يثور (الكيكويو) يكون الأمر مقلقاً

بحق .. »



www.dvd4arab.com
Hany3H
www.dvd4arab.com

ما يخيف فيه .. فأنت لم تقل إنهم أكلة لحوم بشر مثل
(الكيجاني) أو محاربون شرسون مثل (الماساي)
و (الزولو) .. »

ابتسم كاشفاً عن أسنان لؤلؤية .. وقال :

- « هذا هو ما يخيف .. حين تتجه قبيلة مسالمة
إلى العنف ، لك أن تتوقع شيئاً لا يمكن توقعه .. هل
وباء من نوع جديد ؟ أم نبتة تسبب الهلوس بدعوا
في تعاطيها ؟ »

- « هذا ما سيعرفه أولئك الشجعان .. ما لم
يموتوا قبلها طبعاً .. »

نعم .. فالحقيقة أن هناك عادة بذينة لدى حملات
الاستكشاف هذه .. هي أنها لا تعود ، كأنما هذا واجب
مقدس لا بد من القيام به .. وكان (ليفنجستون) هو
مبتدع هذه العادة ، ومن يومها كفت الحملات عن
العودة .. لا بد من مختفين .. ولا بد من رجل أبيض
مجروح يظهر في إحدى قرى السود يقول شيئاً
لا يفهمه أحد ، ثم يموت ..

ورحت أوصل فحص عينات الدم ...

★ ★ ★

سمعت هدير مروحة الطائرة ، فخرجت إلى الفناء
الخلفي ..

يجب أن اعترف ها هنا أنني - فيما يتعلق
بالبائرات - أتحول إلى طفل صغير يوشك أن يثب
فرحاً مع التصفيق باليدين .. لكنني حاولت التماسك
والتظاهر بالوقار .. فالجميع هنا لا يبدون اهتماماً ، كأن
هبوط طائرة هليوكوبتر أمر لا يثير الشغف أو الفضول ..
كانت مروحتها الأفقية تهدر .. بينما أضواؤها
تتعكس في عيوننا فتعميها مؤقتاً ، وراحت معاطفنا
ترفرف ، والأعشاب تتمايل في جنون .. بينما الشيء
العماق يهبط في تودة ليستقر على أرض الفناء
الأسفلتية ..

ومن الباب خرج ثلاثة رجال يرتدون سترات زرقاء
عليها شعار (سافاري) ، وبشيء من الجهد
استطاعوا إنزال محفة عليها ما تبين لي - وسط
الظلام - أنه جسد أسود عملاق ..

كان المريض حياً يرزق .. لكن عينيه تلتمعان
وحدهما لا تكفان عن الدوران في محجريهما ، وأدركت
أنه مقيد ! معصماه مربوطان إلى جانبي المحفة ،

ومن الواضح أنه كفاً عن المقاومة منذ فترة ،
واسترخى جسده تماماً .. لكن عينيه ظللتا تقاومان
دون هوادة ..

دنوت من (بودرجا) الممرض الذى كان يرمق
المشهد فى لا مبالاة وسألته :

- « ما هذا ؟ »

نظر لى ، ثم عاد يرمق عملية نقل المريض أو
خطفه وقال :

- « هذا من رجال (كيكويو) .. وجدوه قرب

(سوفلاى) .. »

- « وهل هذا كاف لتقييده كالخراف ؟ »

أشار إلى أنفه بإصبعه السبابة ، وهى إماعة
إفريقية قريبة من تحريك السبابة فى دائرة حول
الصدغ عندنا .. ومعناها : مجنون ..

وقال باستمتاع :

- « إنه مجنون تماماً يا دكتور .. كخرتيت انكسر

قرنه .. »

حسن .. لقد تقدمت إفريقيا حقاً .. كان المعتاد أن
يقال إن هذا البانس مسحور وإن (داوا) قوية قد
أصابته .. لكنهم اليوم يذكرون كلمة (جنون) ..

نظرت للرجل البانس .. حقاً .. هاتان عينا مجنون ..
لا يمكن إلا أن تكونا لمجنون .. ولكن ما سبب
جنونه ؟

مشيت وراء المحفة إلى قسم الاستقبال ، حيث كان
طبيب التخدير الإيرانى (محمد آرداش) يعد محقناً
ملاًه بـ (البارالدهايد) ، ثم أفرغه فى إلية المريض ..
أطلق هذا صرخة هائلة ثم بدأ يسترخى ، وشممت
رائحة (البارالدهايد) الكريهة تفعم المكان .

هنا فقط - وقد نام هذا المسعور - أمكنهم أن يفكوا

الحبال ، ويريحوا الجسد العملاق على السرير

كان عارياً إلا من إزار جلدى يتدلى من بطنه إلى
الركبتين ، وفى أذنيه كان القرطان المميزان
للـ (كيكويو) .. قطعتان من الخشب الأسطوانى ، كبيرتان
جداً حتى إن شحمة الأذن توشك أن تلامس الكتف ..
وكان رأسه حليقاً تماماً ، وحين فتح فاه لمحت أسنانه
المديبية الشبيهة بأنياب التماسيح ..

قال (بودرجا) كأنما سمع أفكارى :

- « إنهم يبردون أسنانتهم الأمامية لتبدو حادة

مديبة .. »

هزرت رأسى فى فهم ، على حين قال (آرداش)
للمرضين وهو يتحسس نبض المريض :
- « لا بأس .. خذوه إلى العنبر .. واحرصوا على
حراسته بعناية .. »

ثم نظر إلى ساعته ، وأضاف :
- « سيفيق بعد ساعات قليلة .. سنعطيه جرعات
من الـ (بنزوديازبين) بعد هذا بانتظام .. »
وسمعنا هدير الهليوكوبتر ، وهى ترتفع عائدة إلى
أرضها النائية .. نظرت لساعتي ووجدت أن النوم
خير ما يمكن عمله ..

★ ★ ★

وفى الرابعة صباحاً صحت على صوت الصراخ ..
إننى أعانى مشكلة مزمنة لا حل لها .. هى أنتى
لا أستطيع النوم بعمق حين يكون هناك صوت صراخ
عال فى الردهة .. لهذا نهضت بثيابى الداخلية لأرى
ما هناك ، ثم عدت كى أرتدى ثياباً محترمة ، وخرجت
إلى الردهة ..

كان هناك من يصرخون ، ويشيرون إلى جناح
الأمراض العصبية إياه .. هرعت إلى هناك لأرى
المشهد التالى :

- العملاق الأسود يقف فى وسط الممر ، وقد أحاط
بذراعه العضلية الحديدية عنق إحدى الممرضات
الفرنسيات .. وفى اليد الأخرى كان يحمل سكيناً
عملاقاً يتناسب مع حجمه ..

كان يلوح بالسكين ، ويتراجع حتى ليوشك أن
ينتزع عنق الممرضة ، التى كان الرعب قد جعلها
أقرب إلى خرقة لا تملك حتى القدرة على الصراخ ،
وراح يردد كلمات بلغة قبيلته الغريبة .. لكن معناها
لا يحتاج إلى مترجم : تراجعوا .. لا يمنعنى أحدكم
من الفرار وإلا ذبحت هذه المرأة ..

المخيف هنا ليس السكين ولا الموقف .. المخيف
أنه كان يضحك .. يتكلم وهو لا يكف عن القهقهة
كاشفاً عن أسنانه البيضاء المدببة ..

كان خمسة من رجال (سافارى) وامرأتان يقفون
فى الردهة عاجزين عن اتخاذ قرار صائب ..
وسمعت د. (براكللى) نائب المدير يقول وقد لحق
بنا ..

- « لقد تحول المكان إلى سيرك .. من أين جاء
هذا المعتوه بالسكين ؟ »

قلت وأنا أدرى يا سيدي .. ربما كان يخفيها في
ثيابه .. »

- « ثيابه ؟ إنه عار تمامًا ! »
تنبعت إلى هذه النقطة ، فأثرت الصمت ورحت
أرقب المشهد .. وتساءلت في ضيق : لماذا لا يفعل
أحدهم شيئًا ؟ ثم أدركت أنني (أحدهم) وأتني
شاب .. ولو كان على أحد أن يخاطر بحياته فهو أنا ..
لكن كيف ؟

كيف الاقتراب من هذا المعتوه الضاحك دون أن
يطير رقابنا أو رقبة الفتاة !؟

كان يتراجع آتياً بنوع من الحركات الراقصة بساقيه
، وهو لا يكف عن القهقهة .. وغد مرح حقاً ..

وغد مرح ، لكنه لا يعرف أن حارس الأمن
الكاميرونى (ليوبولد) يدنو منه من الخلف .. ولو
عرف لصار أقل مرحاً بالتأكيد ..

وتم كل شيء بكفاءة غير عادية ..
ألقى (ليوبولد) فوهة مسدسه بمؤخرة رأس
العملاق ، وضغط الزناد .. واهتز المكان بصوت



العملاق الأسود يقف في وسط الممر ، وقد أحاط بذراعه
العضليّة الحديدية عنق إحدى الممرضات الفرنسيات ..

الطلقة ، وراحت آذاننا تتذبذب كأنما عنكبوت مشاغب
قد اختارها لينسج خيوط بيته ..

كانت هناك دماء .. لكن رأس العملاق كان يعلو
رأس الفتاة بمسافة لا بأس بها ، فلم تؤذيها الطلقة
الموجهة لأعلى طبعاً .. وسرعان ما ارتخت الذراع
وهوى - كالجبل - على الأرض .. وعلت صرخات الفتاة
لتزيد حالة آذاننا سوءاً ..

هرع د. (كلارك) ليخطو فوق جسد العملاق ،
وكان رجل الأمن واقفاً في بلاهة والمسدس في يده
والدخان ما زال يصاعد منه ..

قال له في توتر :

- « يا لك من أحمق ! كان بوسعك أن تضربه
بقبضة المسدس على رأسه كما يفعلون في السينما ! »
قلت وأنا أساعد الممرضة المتلاشية على التماسك :
- « لم يكن ليضمن النتائج .. هذا العملاق يحتاج
إلى قبلة كي تفقده وعيه . ولو لم تؤثر فيه الضربة
لما كانت الفتاة بيننا .. »

وقفنا نرمى المشهد الدامي .. دماء متناثرة ..
شظايا مخ مخلوطة بفتات عظام .. رائحة بارود ...

قال د. (كلارك) وهو يتأمل كل هذا :

- « أية فوضى ! إن لى بضع كلمات مع حراس
الأمن ها هنا .. لقد اتذرناهم أن المريض هائج
وخطر .. »

- « لقد أزالوا أثر إهمالهم .. غسلوه بالدماء لو
كان لى أن استعمل هذه العبارة »
- « ولكن ما سر جنونه ؟ »

حقاً ما سر جنونه ؟

ووقفنا في بلاهة لا تقل عن بلاهة رجل الأمن ،
نرمى آثار هذه المذبحة ، وشعرنا جميعاً أن شيئاً
رهيباً ينتظرنا .

★ ★ ★

www.dvd4arab.com

Hany3H

www.dvd4arab.com

٤- انتظار يطول ..

راحت محركات الهليوكوبتر تهدر ، على حين راح العمال ينقلون متاع الحملة إلى داخلها .. ووقف فريق العمل المكون من ستة أفراد ، عرفنا منهم (برنات) و (شلبى) و (أوشيمو) و (بسام) .. وكانوا يرتدون بذلات (سافارى) .. أعنى ثياب الصيد فى الأدغال طبعاً ..

كانوا متحمسين وقد احمرت وجناتهم اتفعلاً ، وبدا عليهم أنهم يعتبرون أنفسهم شهداء الحقيقة .. دنا بروفيسور (بارتليه) منهم ، وقد فتح معطفه مبرزاً كرشه العملاق الذى يتقدمه دوماً فى سبل الحياة .. وراح يتأكد من أنهم يعرفون حقاً ما ينبغى القيام به ، ولم ينس أن يعهد بالقيادة لـ (آرثر شلبى) أكبرهم سنًا وأكثرهم علمًا .. كما أعطاه جهاز لاسلكى يسمح بتغطية دائرة لا بأس بها ، وكان على الفريق استكمال الرحلة على الأقدام من (سوفلاى) ..

اقتربت منه ، وانتظرت حتى أنهى سيل الفرنسية الذى اتهاى به على رءوسهم جميعاً ، ثم قلت له فى أدب :

- « سيدي .. إننا لم ننتظر تقرير تشرىح جثة رجل (الكيكويو) .. »

نظر لى كأنما نسى الموضوع ، ثم قال فى لامبالاة :
- « التشرىح لن يضيف شيئاً .. لو كان الأمر تسمماً بنبات محلى لا نعرفه ، أو عدوى بفيروس ما .. فما زال علينا أن نذهب لتحقيق فى الأمر .. نجمع العينات ونسمع تواريخ الحالات .. »
وأضاف أحد أمثله المحببة :

- « لقد تقدمت الحرب كثيراً ، لكن المشاة هم من يحتل المواقع ويؤمن الإمدادات .. »
هزرت رأسى مطرباً حكمته ، ثم اتجهت إلى (بسام) ، وتبادلنا نظرة قالت الكثير .. فنحن عربيان .. لنا نفس التاريخ ، ونضحك لنفس الدعابات ، ونسمع ذات الأغاني ، ونصوم فى ذات الشهر ، ونصلى لذات القبلة .. كل هذه أشياء تبدو عاطفية سخيفة .. لكنك فى الغربية لا تجدها بهذا السخف .. صدقتى ..

عُذْ سالماً يا (بسام) .. فأنت الوحيد هنا الذي
يجرى دمه فى عروقى ..

ثم نظرت إلى (برنادت) ، وابتسمت مشجعاً ،
فكورت أنفها بأسلوب (التشنكية) المعهودة لديها ..
مرة أخرى كان هذا أبلغ من أية كلمات تُقال .. عودى
سالمة يا (برنادت) .. وأنت تعرفين السبب ..

بعد هذين العزيزين لم أعد أهتم كثيراً بما يحدث
للآخرين .. لربما سرتي أن أتصور (آرثر شلبى) -
بكسر الشين - مقيداً بالحبال فى قدر يغلى ماؤه ، فيما
يرقص رجال (الكيكويو) حوله بالرماح ..

لكن (الكيكويو) - للأسف - لا يأكلون لحم البشر ..
راحت مراوح الهليوكوبتر تهدر بسرعة أكبر ،
وراحت معاطفنا تتطاير ، والغبار يعمى عيوننا ..

فريق (سافارى) الجسور يصعد إلى الوحش
الهادر .. و(بودرجا) يقف أمام الطائرة ليأتى بذراعه
حركات سخيفة لا معنى لها ، لكنه يراها فى الأفلام
السينمائية .. لا بد من رجل يلوح أمام الطائرة وإلا
انفجرت فى الجو .. هذا هو ما يظنه ..

ثم يرتفع الديناصور الحديدى حاملاً حمولته الثمينة ..

ودمعت عينائى وأنا أرقبه وهو يرحل ...
كان ذلك الشعور فى مؤخرة عنقى .. شعور
بانتصاب الشعيرات هناك .. نوع من الكهرباء
الاستاتيكية لا أستطيع وصفه .. لكنه يحدث دائماً كلما
فارقت من لن أراه مرة أخرى ...
هذه الحملة لن تعود ...

يمكننى أن أراهن على هذا

★ ★ ★

كان (جيديون) أستاذ علم الأمراض فى المشرحة
كدأبه ، عاكفاً على فحص جثة الإفريقى الذى أسدت
إليه (سافارى) خدمة النقل السريع إلى العالم الآخر ..
عاكفاً على الإدلاء بملحوظاته فى (ميكروفون)
صغير الحجم معلق من كشاف الإضاءة ، ويتصل
طرفه الآخر بجهاز تسجيل ؛ عرفت أن الرجل منهمك
حقاً .. ومهتم ..

نظر لى نظرتة غير المرحبة ، ثم واصل الكلام :
- « .. وعند تشريح المخ وجدت تمزقاً شديداً فى
الأم الجافية والأم الحنون ، وتهتكاً فى أنسجة المخ ،
مما يجعل العين المجردة غير ذات قيمة .. يوجد تجمع

من الدم المتخثر ، لكننى لم أستطع العثور على
الرصاصه .. من الواضح أنها .. خرجت من »
ومد مسبراً فى الثقب .. ثم عاد يقول :
- « خرجت من فتحة الخروج .. وهكذا يمكن القول :
إن الوفاة حدثت فوراً .. و .. لا مزيد .. »
كان قد انتهى فقال لي وهو يرفع يديه الملوثتين فى
قفازيهما :

- « هلا أغلقت الجهاز بحق السماء ؟ »
لم يكن له مساعدون فى المشرحة .. ولم يكن
يرحب بواحد منهم .. فهو بخيل جداً بعلمه ، ويمقت
الأسئلة .. لكننى كنت أعرف أن الرجل يخفى تحت
جلده التخين بئراً عظيماً من آبار العلم .. وكانت
اللمحات التى أسمعها منه تعطينى زاداً علمياً دسماً
لأسابيع عدة ..

كان يهودياً متعصباً .. لكننى كنت أتعامل معه
بأسلوب (حلب الأفاعى) الشهير .. لذا أغلقت له
جهاز التسجيل فى تواضع وسألته :

- « لماذا تشرحون هذا الرجل هنا ؟ »
ابتسم وهو ينزع قفازيه ويطوح بهما فى سلة
المهملات :

- « لأنه لا يوجد طبيب شرعى واحد فى
(أنجاواتيرى) .. »

ثم أشار إلى الرأس الممزق ، وغمغم :
- « لكن رجل الأمن الأحمق هذا لم يترك لى الكثير ..
كنت أعتزم تشريح المخ بدقة ، لكن الرصاصه لم تبقى
نسيجاً جوار نسيج .. على كل حال ، قد استنقذت
بعض عينات تصلح للدراسة المجهرية .. »

- « والتحليل الكيمياءى ؟ »
- « لم نتلقه بعد .. لكن المعدة خالية من النباتات
المريية ، لو كان هذا ما تبحث عنه .. أعتقد أنه
لا مخدرات فى الموضوع .. »
تأملت الجثمان وعدت أسأله :
- « هل هناك جنون وبائى ؟ »
فكر حيناً ثم قال :

- « التسمم سبب لا بأس به .. لقد تساءل العلماء
كثيراً عن سبب جنون أكثر قياصرة الرومان ..
(نيرون) .. (كاليجولا) .. إلخ ، ثم تبين من تحليل
الأنسجة والعظام أن لدى هؤلاء نسبة غير عادية من
الرصاص .. لقد كانوا - الحمقى - يستعملون أنية

رصاصية لطعامهم وشرابهم .. وكانوا حالة شائقة
لتسمم الرصاص المزمن الذي يسبب الجنون ضمن
أعراضه .. وهكذا يمكن القول دون مبالغة إن
الرصاص هو قاهر الإمبراطورية الرومانية .. «
وصباً لنفسه بعض القهوة من (ترموس) على
المنضدة ، وقال :

- « خذ عندك مثلاً آخر : الجنون الذي كان يصيب
قباطنة السفن الإنجليزية ، الذين يقضون وقتاً طويلاً في
المحيط .. كان القبطان يتحول إلى طفل سخيّف مهمته
أن يحيل حياة بحارته جحيماً .. فيما بعد عرفنا أن
السبب هو نقص فيتامين (ب - ١) والذي يسبب
مرض الـ (بيرى بيرى) .. وأمكنا اتقاء هذا الجنون
بنخالة الأرز أو بخميرة البيرة .. »

- « وما هو في رأيك سبب حالة الجنون هذه ؟ »

- لا أدري بعد .. لكننا سنعرفه حتماً .. »

وابتسم في ثقة .. وهزّ رأسه بمعنى أنه راغب في
انصرافى ..

تذكرت المقولة القديمة : طبيب يعرف كل شيء
ولا يفعل شيئاً ، هو الطبيب الباطنى .. وطبيب لا يعرف

شيئاً ويفعل كل شيء هو الجراح .. وطبيب يعرف
ويفعل كل شيء لكن بعد فوات الأوان .. هو طبيب
علم الأمراض أو (الباثولوجى) .

حقاً يعرف (جيديون) ويفعل كل شيء ..

لكن هل فات الأوان حقاً ؟

★ ★ ★

مرّ يومان وأنا أتحرّق شوقاً لمعرفة مصير الحملة ..
كان من غير المعقول أن أقرع باب المدير لأسأله
عن الأخبار ، فعلاقتى به لم تصل لهذا الحدّ قط ، ثم
إننى رفضت الاشتراك فى الحملة منذ اللحظة الأولى ..
سيكون غريباً أن أبدى حماسى الآن ..

على أننى قابلته فى أثناء مرورى فى عنبر حالات
الغيوبة ، وسببها هنا - بالإضافة إلى أسباب العالم
المتحضر - يكاد أن ينحصر فى مرض النوم ، والالتهاب
المخى ، والملاريا المخية .

كان يتفقد سير العمل ، وخلفه يمشى د. (براكلى)
حاملاً قلماً و (بلوك نوت) صغيراً ، يدون فيه
ملاحظات المدير .. وهذه الملاحظات سوف تطبق
بدقة وأمانة ، وليست على سبيل التملق أو النفاق ..

فما إن رأني حتى هز رأسه محيياً .. وغمغم .
- « هو ذا صديقنا المصري الشاب .. ماذا تفعل
هنا ؟ »

فلو لم يكن المدير لرددت عليه ردًا لاذعًا على
غرار (ليس لجمع عسل النحل بالتأكيد) أو (أفعل
ما يفعله الطبيب وسط حالات الغيبوبة) .. لكنني
ابتلعت لساني .. وقلت في أدب :

- « إبنى مسئول عن هذا العنبر اليوم .. »
وللمرة المليون سألني السؤال الذي لن يتذكر
إجابته أبدًا :

- « وما هو تخصصك ؟ »
- لم أتخصص بعد .. لكنني طامح لأن أكون
جراحًا .. »

ثم سألته قبل أن تزول حبال التودد :
- « ما هي أخبار حملتنا إلى (سوفلاي) ؟ »
هز رأسه في مرح ، واتحنى يتفقد جهاز التنفس
المثبت في حنجرة مريض يعانى غيبوبة سكر
طويلة ..

- « بخير .. بخير .. (شلبي) يتصل بنا باستمرار ،

ويقول إن القوم ظرفاء ودودون .. إن العينات ستكون
هنا خلال يومين على الأرجح .. أين الممرضة ؟ إن
هذا الشاب يعانى قروح فراش .. لا بد أنها أهملت
تبديل وضعه .. »

هرعت الممرضة الممتقعة لتفسر أو تقدم أعذارًا ..
أما أنا فشعرت برضا لا حد له .. فالحملة ما زالت
بخير ..

ربما كان من الممكن أن يظلوا أحياء برغم كل
شيء ..

★ ★ ★

في الثامنة مساء سمعت الطرقات على باب
حجرتي ..

لقد اعتدت هذه الطرقات في أول المساء ، وصرت
أعرف معناها بسهولة تامة .. المدير يريدني ..
والسبب كارثة طبعا ..

- « المدير يريدك يا دكتور .. »

- « السبب كارثة طبعا .. »

- « ربما .. »

وارتديت معطفي ، واتجهت متوجسًا إلى مكتبه ..



كان هذا الأخير يحمل صوراً فوتوغرافية ..
صوراً تم التقاطها من تحت المجهر ..

مشكلة هذا الرجل أنه يجدنى بسهولة تامة .. هذا
المساء أنا لست نوبتجياً ولست مكلفاً بأى شىء ،
وكان حلمى أن أقضى الوقت فى الفراش ، أطلع رواية
بوليسية سخيقة ، أو أكتب خطاباً لـ (أشرف) صديقى
فى مصر ، أفسر له سبب عدم كتابتى أى خطاب له ..
لكن هأنذا أدخل إلى مكتب المدير ، لأجده جالساً
وأمامه (جيدون) أستاذ علم الأمراض إياه ..
والإضاءة العلوية تنذر بكارثة ..

كان هذا الأخير يحمل صوراً فوتوغرافية .. صوراً
تم التقاطها من تحت المجهر .. وكانت تمثل الشرائح
التي أعدها من مخ عملاق (الكيكويو) إياه .. وكان
وجه الرجل ممتنعاً مفعماً بالقلق ..
وبعد لحظات من الحوار ، عرفت خطورة الموقف
بحق ..

لقد كانت الشعيرات فى مؤخرة عنقى صادقة
كالعادة ..

إن حملتنا لن تعود

★ ★ ★

١- بف ف ف ف !!

قالت (برنات) :

من الأشياء التي علمتنا إياها الحضارة الحديثة ،
هي أن المرأة لا ينبغي لها أن تعترف بوهنها الجسدي ،
حين تكون وسط الرجال ...

★ ★ ★

كانت - والحق يقال - رحلة شاقة إلى (سوفلاي) ،
فبعدها هبطت طائرة الهليكوبتر كان علينا أن نستقل
عربة (لاندروفر) إلى قرية (الكيكويو) أو - بعبارة
أدق - منطقة قراهم الواقعة في أقصى الجنوب الشرقي
للبلاد ، وكان الطريق وعراً .. وعراً كما خلقت اللفظة
لتعني .. ومن الواضح أنهم لم يتوقعوا قدومنا من قبل
ليعدوه بما يتناسب مع عظامنا الهشة ..

كنت أقضي الساعات أترثر مع التونسي (بسام) ،
وهو إنسان لطيف المعشر حقاً .. ومتحمس لكل شيء
باعتباره يخوض تجربة الغابة الإفريقية للمرة الأولى ..

الجزء الثاني

عن القبائل التي تكذب

بقلم د. برنات جونز

« هؤلاء القوم يدارون شيئاً ما .. شيئاً يهابون
الكلام عنه .. لكنه حقيقي وملموس ومفزع ..
« ليتهم يصدقونني .. ليتهم يفرّون من هنا قبل
فوات الأوان ..

ليتهم يؤمنون برهافة حواس المرأة .. »

أما الآخرون فكانوا يرقبون كل شيء بفتور أدنى إلى الملل .. فهي مهمة روتينية قاموا بها مراراً ها هنا .. صحيح أن الغموض يغلف كل شيء ، لكن من قال إن الأمور واضحة إلى هذا الحد في الدغل ؟
كان معنا (أوشيمو) الياباني و (شلبي) الأمريكي و (رافاييل) الكامبروني و (هسلر) الألماني .. منظمة دولية صغيرة تشق طريقها عبر الأدغال لمعرفة ماذا أصاب الـ (كيكويو) ...

كان دور (رافاييل) - طبيب الأعصاب الشاب - يتلخص في ترجمة ماسيقال ، وشرح ما لن نفهمه أبداً من عادات هؤلاء القوم .. ولكن دور الحماية كان على عاتق رجل الأمن (ليوبولد) الذي زودوه ببندقية آلية ومسدس .. وكنا نعرف أن هذين لا قيمة لهما لو ساءت الأمور .. فكل مستكشف لإفريقيا يعرف أن الأسلحة النارية قد تقتل خمسة أو ستة رجال قبل أن ينقض عليك باقي رجال القبيلة ليمزقوك إرباً .. وفي العادة يكون دور الأسلحة النارية ضاراً أكثر منه نافعاً ..

لكنها شيء لا غنى عنه .. فالأسود تفهم لغة الطلقات النارية على كل حال ...

ساعات طويلة استغرقتها رحلتنا الوعرة ، حتى خيل إلى أننا في إعلان عن كفاءة هذه السيارة (اللاندروفر) وقدرتها على اختراق الصخور .. وفي النهاية تأمل د. (رافاييل) الخارطة وأعلن أننا قد وصلنا إلى قرى (الكيكويو) ، وكان على السائق أن يتركنا ويعود إلى (سوفلاي) ..

سأله (آرثر شلبي) وهو يمضغ سيجاره :
- « ما سر استقرار هذه القبائل ها هنا ؟ »

قال (رافاييل) وهو يعيد طي الخارطة :

- « لقد صار هذا السر أقدم من أن يعرف .. من يدري ؟ لربما نزحوا من (إفريقيا الوسطى) أو (الكونغو) بعد ما أحرقوا غابات كثيرة ولم تعد ثمة أرض صالحة للزراعة .. ولربما جاءوا من (أوغندا) في ١٨٨٠ فارين من اضطهاد وعنف الطاغية (موتيزا) .. »

سألته وقد دق الاسم جرساً في ذاكرتي :

- « (موتيزا) ؟ من هو ؟ »

- آه يا دكتورة .. إنه أشرس سفاحي إفريقيا في تاريخها .. لقد كان يتسلى بالذبح .. وكم من مرة

رأينا جمعاً من هؤلاء القوم يغادرون أكوأخهم
ليلقونا (*) ..

ولاحظت سمة ندر أن تراها اليوم فى القبائل
البدائية .. العرى .. فهؤلاء القوم عراة تماماً إلا من
إزار من جلد يحيط الخصر ويتدلى حتى الركبتين ..
وكانت النساء شديداً القبح ، يرتدين حلياً من النحاس
أو الفضة بعضها أسفل الركبتين ، وبعضها حول
الكاحلين ، ويصل عددها إلى العشرين حتى ليحار
المرء فى كيف يستطيع المشى بهذه الأثقال ..

والسمة العامة الأخرى فى النساء ، هى أنك لا ترى
واحدة تمشى دون أن يكون على ظهرها شىء ..
حمل من الحطب يعجز الجمل عن حمله ، أو طفل فى
كيس جلدى يرفعه سير يحيط بالجبهة ، أو إناء من
الجلد يحوى طعاماً ما ..

أما الأذان ففيها الأقراط الأسطوانية العملاقة التى
رأيناها فى أذنى محارب (الكيكويو) فى (سافارى) ..
وكانت بعض هذه الأقراط هائلة الحجم حقاً حتى إنهم

(*) من جديد نكرر أن كل ما يرد فى (سافارى) حقيقى ،
ما لم نقل غير ذلك فى الهامش ..

قطع رأس إحدى زوجاته ، لأنها نسيت إغلاق الباب
وراءه .. وفى كل صباح كانوا يدفنون أمامه طفلاً
حياً إرضاءً للأرواح .. ويوم مات قدموا على قبره
خمسمائة ضحية بشرية ! »

قال (شلبى) فى استمتاع :
- « يقطع رأس زوجته لأنها لم توصل الباب !
مرحى ! هذا هو الحزم الرجولى ! »
- « لقد كانت له سبعمائة زوجة ! »

- « لا بد من هذا العدد الكبير ، ليجد رءوساً كافية
لقطعها .. ولكن دعنا من المزاح وقل لى : هل
(الكيكويو) يختلفون عن (البانتو) ؟ »
قال (رافاييل) وهو يحاول أن يتذكر :

- « كقاعدة : لا أظن .. إنهما قبيلتان مسالمتان
مولعتان بالزراعة والرعى .. ولم يعرف عنهم أنهم
محاربون أو شجعان .. ولا بد أن فظائع (موتيزا) قد
جرحت شعورهم الرقيق كثيراً .. »

ونظر إلى ساعته وتثأب .. ثم قال للسائق :
- « أظن أن أمامنا ربع ساعة يا (جومبا) .. »



يربطون صوان الأذن بشريط من خرز معلق فى
الجبهة ؛ كى يحمى الأذن من أن تتمزق تحت ثقل
القرط ..

السمة الثالثة التى تفتح العين افتتاحاً هى أسناتهم
التي يبردونها لتبدو حادة لامعة كأسنان الكواسر ..
ولاحظت أنهم يضعون على رءوسهم روث البهائم
ويدهنون به أجسادهم ، حتى إن رائحتهم لا تطاق ..
وسألت دليتنا الكاميرونى د. (جابرييل) عن سر هذه
العادة المقيتة فقال :

- « ليس هذا كل شىء .. إنهم يستحمون ببول
الأبقار أيضاً ! »

تقلصت معدتى لكنى حرصت على ألا يتقلص وجهى
بدوره ..
وسألته :

- « وما الحكمة فى هذا ؟ إن هذا لن يزيدهم جمالاً
على ما أظن »

ابتسم للملحوظة .. كان يسره أن يرى تفاعل
الأوروبى أو الأجنبى ، إذ يرى هذه الأشياء .. وقال
وهو يتقدمنا :

- « هذه العادة تجعلهم مقبولين عند الماشية ..
لا تنس أن هذا مجتمع زراعى رعوى .. وبالتأكيد
ليست مقاييس الجمال عند الماشية ملائمة لنا معشر
البشر ! »

كتمت خواطرى وذنوت معه من زعيم هذه القرية
الذى خرج كى يستقبلنا ، وحوله أربعة من الرجال
يحملون الدروع والحراب ..

كان عارياً مثلهم ، حليق الرأس مثلهم ، لكن عدد
الحلى التى كان يرتديها أكثر نوعاً .. ثم إن له مهابة
وسلطة لا تخطنهما العين ..

وحين ضحك رأيت أسناته العاجية شديدة البياض ..
وتذكرت هنا ما سمعته مراراً من أن قيمة الرجل فى
إفريقيا السوداء هى بياض أسناته .. ولو ظهر بين
هؤلاء (أديسون) ذاته مصفر الأسنان ، لا اعتبروه
مخلوقاً غيبياً وضعياً ..

رفع د. (جابرييل) يده محيياً ، ثم راح يتكلم ..
من الواضح أنه يلقى عننا شديداً فى الكلام ، لأنه
يتحدث بخليط من اللهجات ، ويعتمد على الإشارة
كثيراً ..

لكن القوم كانوا يصغون له باهتمام .. فهو أسود
البشرة ، ويستحق الاحترام ، لا كهذه القرده البيضاء
والصفراء التي تمشى معه ..

أخيراً قال الزعيم بضع كلمات .. فاستدار (جابرييل)
يقول لنا :

- « إن الزعيم (مولجا) قد فهم مهمتنا ، وهو
يرحب بنا هنا للفترة التي نريدها .. وستكون كل
إمكانيات القبيلة تحت إمرتنا .. »

- « ... بما فيه المعامل وأجهزة الحاسب الآلى ! »
قالها (آرثر شلبي) ساخراً بجانب فمه .. فلما
يعلق أحدنا ..

سأل (أوشيمو) مترجمنا :
- « وماذا عن الستة العلماء المفقودين ؟ »
نقل (جابرييل) السؤال إلى الزعيم ، ثم ترجم لنا
إجابته :

- « يقول إن هناك عشر قبائل هنا ، كلهم من
(الكيكويو) .. فلماذا نسأله هو بالذات عما لا يعرف
إجابته ؟ »

قال (شلبي) :

- « إجابة مفحمة .. وما رأيته في الوباء ؟
ما تفسير سلوك هؤلاء القوم العدواني ؟ »

- سؤال جديد يوجه بلغة كسيحة .. لكن إجابة
الرجل كانت بليغة جداً .. أصدر صوتاً خاصاً من بين
شفتيه (ب ف ف ف ف) !

- « إنه يقول »
- لا داعي للترجمة .. يقول إن هذا كله هراء .. »



وكان (شلبي) يجيد تنظيم الأمور حقاً ..
بدأ باختيار مقر إقامة ، وهو كوخ من ألياف
الشجر المجدولة تم صنعه بعناية فائقة .. وكان قذراً
من الداخل لأن هؤلاء القوم يعيشون في أكواخهم مع
الماشية ، لكننا استطعنا تنظيفه وغسله بعناية ..

كان من العسير على أن أجد الماء لأستحم .. ولو
وجدته لما وجدت المكان الذي يسمح ببعض
الخصوصية ، فهؤلاء الناس يتعاملون مع المرأة
تعاملهم مع الرجل .. وقد أشارت لي النسوة إلى نهر
قريب يراه الجميع كي أستحم فيه إذا أردت ، وكان
هذا مستحيلاً بالطبع ..

لهذا اكتفيت بغسل أطرافى ووجهى وشعرى ..
وجاءت النسوة يحملن بعض الآنية الجلدية تحوى
طعامنا ، ولم أكن راغبة فى استكشاف قائمة طعامهم ؛
لأننا نحمل كثيراً من المعلبات معنا .. لكن - بدافع
الفضول - تفقدت الطعام .. كان عجيباً لرجاً له رائحة
متخمرة ، عرفت أنه مزيج من جذور (التابيوكا)
- تشبه البطاطا - مع الذرة ..

وهكذا جلسنا نتناول اللحم المحفوظ ، كما استطعنا
إعداد بعض الشاي على نار أوقدتها النسوة لنا ..
وكان الأطفال العراة يتزاحمون على فتحة الكوخ
لرؤية هذه الأعجوبة التى هى نحن ، فكان (ليوبولد)
يزجرهم ويقذفهم بقطع حجارة صغيرة ، فقط ليزداد
عددهم أكثر ..

سألت (شلبى) ونحن نرشف الشاي بعد الغداء :
- « ما هى خطتنا هنا ؟ هل نمضى بضعة أيام
بانتظار أن يجن أحد هؤلاء .. أم نعود لـ (سافارى)
لنعلم أن الأخبار مبالغ فيها ؟ »

قال وهو يشعل سيجاره العملاق الشبيه بالسجق
الفرانكفورتى :

- « أولاً سننال قسطاً من الراحة .. ثم نقوم بجولة
منظمة على الأكواخ ، ونجرى حصراً للحالات
المرضية .. فى النهاية سيكون لدينا تقرير محترم
نعود به للطاغية العجوز .. »

كان مبالغاً فى عبارته .. فالبروفسور (بارتليه)
لم يكن طاغية على الإطلاق ، بل هو أقرب
إلى التساهل والضعف .. ثم إنه ليس عجوزاً ..
لكن دواعى السخرية لديه كانت أقوى من أية
اعتبارات ..

قلت متجاهلة ما قال :

- « سأتولى أنا حالات الأطفال .. »

- طبعاً .. وسأفحص أنا و (أوشيمو) حالات الكبار ..
وسيقوم (بسام) بعمل جداول دقيقة مع ترقيم
الأكواخ وحصر الأهالى .. (جابرييل) سيفحص
الحالات العصبية ، و (هسلر) سيأخذ العينات ..
ونزع حذاءيه وأعلن أنه راغب فى بعض النوم ..
كنا جميعاً مثله بعد مشاق السفر .. وسرعان
مادس كل منا جسده فى كيس النوم الخاص به ،

بعد ما تأكد من خلوه من الثعابين ، وغاب فى
نعاس عميق ...

★ ★ ★

القمر .. القمر ودقات الطبول ...
لقد نمنا أطول مما توقعنا ...

★ ★ ★

٢- رقصة الموت ..

كان المشهد رائعاً حين خرجنا من كوخنا ..
القمر يتألق بكامل بهائه وسحره ناشراً ضوءه
الراقى الفضى على الوجود .. من بعيد تتدثر غابات
(الماهوجنى) و (الأبنوس) بأشجارها العملاقة ؛ تتدثر
بالغلالة الفضية الزرقاء الشاحبة الرهيبة الباردة ..
ومن قريب تتراقص النيران فى وسط القرية ..
وحولها يلتف رجال القبيلة ونساؤها .. ويرتفع صوت
الغناء الإفريقى الساحر ، يتبادل فيه صوت النساء
الرفيع مع صوت الرجال الغليظ ، على خلفية من
دقات الطبول ..

وحك (بسام) شعره الكث المجعد قليلاً كأكثر
رجال المغرب العربى وتساءل وهو يتثاءب :

- « ما كل هذا ؟ »

قلت وأنا مبهورة الأنفاس :

- « لا أدرى .. لكنه ليس احتفالاً بقدمنا بالتأكيد .. »

www.dvd4arab.com
Hany3H
www.dvd4arab.com



كان هناك ساحر يرقص ، وعلى رأسه قناع يمثل وجهًا باكيًا
كأقنعة تمثيل الإغريق ..

كان هناك (طوطم) صغير الحجم في مركز الاحتفال ، لم نلاحظ وجوده لدى وصولنا .. وكان ككل الطواطم الإفريقية ، عبارة عن جذع شجرة ، نحتت عليه وجوه بشعة ، لكنها متقنة جدًا من الناحية التشكيلية ، وقد تم تلوينه بتلك الألوان الإفريقية الزاهية المنفرة ، والتي تجعلني أشك في اختلاف تركيب عيونهم عن عيوننا ..

لكن الشعوب البدائية كلها لا تؤمن بموضوع اتسجام الألوان هذا .. هم يحبون الألوان في حد ذاتها ، ولا يفهمون معنى لكراهيتنا لاتحاد ألوان معينة مع بعضها ، لهذا يضعون الأخضر الزرعي جوار البرتقالي الفاقع جدًا ، ولا يرون في هذا خطيئة .. وأعتقد أن بوسعي فهم وجهة نظرهم هذه ..

كان هناك ساحر يرقص ، وعلى رأسه قناع يمثل وجهًا باكيًا كأقنعة تمثيل الإغريق ، وحوله كان رجال ونساء القبيلة يرقصون ذلك الرقص العشوائي المجنون الذي ليست له خطة معينة .. إن رجل غرب إفريقيا يبدأ في الرقص المحموم ، قبل أن يعرف أن هناك موسيقا ..

فلما شعروا بوجودنا ازدادت حماستهم فى الرقص
أكثر فأكثر .. أجسادهم المغمورة بالعرق تلتصق فى
ضوء المشاعل ، ومن آن لآخر يثب أحدهم فى الهواء
وقد غمرته النشوة ثم يواصل الرقص ..

قال د. (جابرييل) وقد لاحظ اتبهارى بالمشهد :

- « لم تريه من قبل ؟

- « فى السينما فقط .. »

- « إن الأفارقة يرقصون دوماً ... يرقصون للفرح
ويرقصون للحزن .. يرقصون للحب ويرقصون
للمقت .. يرقصون إلى أن تأتيهم الحضارة لترهقهم
بالخدمة العسكرية والضرائب ، وحتى يأتى المبشرون
ليخبروهم بأن الرقص آثم كالشيطان ، وحتى يحرق
الحكام الرقص باعتباره مزعجاً ومصدراً للصخب ..
لكن الأفارقة - برغم كل شىء - يستمرون فى
الرقص فى القرى الصغيرة ، حيث لا يوجد حكام
ولا رجال بيض .. »

كانت هناك جوفتان للغناء .. جوفة تتكلم والأخرى
ترد عليها مع إيقاع الطبول وآلة تشبه (الإكسليفون)
ولم تكن هناك أية آلات نفخية .. وعرفت مر

د. (جابرييل) أن أسلوب الجوفتين اللتين تتبادلان
الحوار نادر فى الغناء الإفريقى .. ربما لا يمكن
سماعه إلا شرق (السنغال) عند قبائل الـ (سيرير) ..
سأحاول هنا أن أصف الرقصة لكم .. وأرجو ألا
يكون هذا مملاً لأن وصف الرقص شبيه بوصف
الموسيقا : لا معنى له ..

الرقصة تدعى (جافارا) .. وبعبارة أخرى (رقصة
الطوطم) .. وأصلها من (بوركينا فاسو) ..
رأينا اثنى عشر رجلاً مقتعاً .. والأقنعة الإفريقية
فى الغالب ترمز إلى الأجداد الموتى .. أى أنها نوع
من عقيدة عبادة السلف .. وكانت رائعة الجمال ،
ملونة بالأحمر والأبيض والأسود ..

أما الراقصون الأساسيون فكانوا يرتدون ما يشبه
قمصاتاً ذات لون بنى وأسود ، وكان كل منهم يحمل
زوجين من العصى يتواثب بهما أو يحركهما كعصى
الانزلاق .. يمثل أولهم دور تمساح أو وحش كاسر
يتواثب فى كل صوب ويرهب الواقفين ، ثم يتقدم منه
سيد (الطوطم) ليقتله فى حركات تمثيلية ..
وينسحب الوحش ليأتى من بعده ، ويعيد الكرة ،

فما إن ينتهي الرجال حتى يرقص سيد (الطوطم)
وحده وبلا تعب .. يرقص ثلاث ساعات كاملة !
كنا نراقب هذا المشهد مبهورى الأنفاس بعيون متسعة .
قال د. (جابرييل) الذى عرفته أنه خبير فى أمور
شعبه حقاً :

- « هذه من الرقصات الشهيرة فى غرب إفريقيا ..
لكن هناك أيضاً رقصة التضحية (دالاباتى) ..
ورقصة الخصوبة (أواتجالادوجو) .. ورقصة الصيد
(ياموسوكرو) .. ورقصة الفضيلة .. لكنى لم أعرف
قط أن (الكيكويو) يمارسونها .. »

قال (شلبى) باستمتاع وهو يلوك السيجار :
- « من الواضح أن هذه القبيلة ما زالت محتفظة
ببراءتها الإفريقية الأولى .. »

- « لیت معنا كاميرا تصوير سينمائى أو كاميرا
(فيديو) .. إن هذه الروائع تندثر سريعاً جداً مثلها
مثل (الغوريلا) و (النسر الأمريكى) .. »
سأل (بسام) وعيناه تلتمعان انفعالا :

- « وما سرّ اختيار مقدمنا لتقديم هذا العرض ؟ »
أشار (شلبى) إلى البدر فى السماء ، وقال :
- « الأمر واضح .. القمر مكتمل فى هذه الليلة .. »

وما كانوا ليؤخروا هذا الحفل الدينى أو يقدموه من
أجلنا .. »

هنا أشار (أوشيمو) إلى صف يتقدم خارجاً من
أحد الأكواخ :

- « ومن هؤلاء بالضبط ؟ »

كانوا نحو العشرة أو نيف من الشيوخ الذين اتحنت
قاماتهم ، وتهدلت جلودهم ، يمشون فى تودة كأنهم
أشباح تغادر القبور .. وببطء اتشقت الصفوف لتخلق
ما هو أدنى إلى ممر يسمح بسيرهم وساد صمت
متوتر رهيب ..

ثم إن الزعيم (مولجا) دنا منهم - أين كان طيلة
هذا الوقت ؟ - فرفع عصاه ، وراح يردد مقاطع لم
أفهمها بعد ..

قلت لـ (شلبى) فى توجس :

- « هل سيذبحونهم الآن ؟ »

ضحك .. ومضغ المزيد من سيجاره وقال :

- « يا عزيزتى أنت تشاهدين أفلاماً أكثر من اللازم ..
حقاً هذه الطقوس توحى بجو التضحية البشرية ، لكن
الرقص الإفريقى فى حد ذاته يقوم على الترميز .. »

أى أنهم كانوا يمارسون هذه الأشياء فى الماضى ،
لكنهم اليوم يكتفون بالرقص تعبيراً عنها .. كما أن وفاة
(هاملت) على المسرح لا تعنى وفاة الممثل .. »

كان الزعيم يحمل سكيناً هائلة الحجم ، ولها مقبض
من الألياف المجدولة ، وراح يدور بها على أعناق
الشيوخ الواقفين ، آتياً بجركات توحى بالذبح ..
وبدورهم كان كل عجوز يجثو على ركبتيه آتياً
بجركات توحى بالاحتضار ..

ثم جاء دور الثور ..

- « ترين .. هذا هو (الفتيش) الرمزى ..
سيذبحونه الآن ، وسيكون لهذا معنى ذبح القرابين
البشرية .. »

- « هل تعنى أنهم لا يفعلون هذه الأشياء الآن ؟ »
- « هذا عسير .. وإلا لتكفلت بأمرهم طائرتان
قاذقتان من سلاح الطيران الكاميرونى .. إن القبائل
البدائية اليوم تتكسب من العروض السياحية مقابل
مال ، ومن العسير أن يعود الماضى كما كان .. »

هنا انتهت النصال على الثور ..

كل من يحمل سكيناً هوى بها على (الفتيش)

لمسكين .. فتراخت أقدامه وسقط على الأرض
بتشخط فى دمه ..

★ ★ ★

انتهى الحفل ..

ورأينا الرجال يمزقون بمديهم فخذ الثور ،
يجلبونها لنا ليلقوها على الغبار ثم تراجعوا ..
قال (جابرييل) :

- « إنها لنا .. يمكننا أكلها مطهية أو نيئة إذا
ردنا .. وهى هدية كريمة من الزعيم .. »

حرك (شلبى) كفه أمام جبينه بما يعنى الشكر ؛ ثم
خرج سيجاراً ناوله للزعيم ، وأشار إليه .. وإلى فمه ..
- « هذا .. دخان .. »

لكن الرجل لم يكن بعيداً عن الحضارة إلى هذا
حد .. لقد تشمم السيجار فى حنكة ، ثم دسه فى فمه
قال بلهجة مضحكة :

- « هووم ! هافاتا ! »

بصعوبة استطعنا كتم ضحكائنا ، وعرفت فيما بعد
أن هذه القبيلة تعرف المستكشفين .. وأكثر هؤلاء
يوجد ما يقدمه هدية سوى الطباق والملح ..

ولم يكن سيجار (شلبي) من نوع (هافانا) ..
لكن الفوارق لن تهتم كثيراً ها هنا ..
سألت (جابرييل) وأنا أرمق الشيوخ يعودون إلى
الكوخ ، بعد ما ظفر كل منهم بقطعة لحم لا بأس بها :
- « وما مصير هؤلاء ؟ »

سأل الزعيم بضعة أسئلة مختصرة ، ثم قال لي :
- « لا شيء .. إن الاحتفال هو نوع من الإعداد
الروحي لهم للحاق بالأجداد ؛ فمن المؤكد أن واحداً أو
اثنين منهم لن يكونا ها هنا حين يكتمل القمر في
الشهر القادم .. والرقصة التي شاهدناها تذكرهم
بفضل (الطوتم) في حمايتهم ، كما تحملهم رسائل
التقدير إلى الأجداد ، وفي النهاية تذكرهم بأنهم
محظوظون حقاً إذ انتهى عصر التهام الشيوخ ! »

بدا لي كل هذا حزينا مؤسياً ..
وتذكرت عادة هنود أمريكا الشمالية ، حين كانوا
يضعون الشيوخ على جزيرة ثلجية عائمة في الماء ،
وفارقونهم كي يعيشوا ساعاتهم الأخيرة في التأمل
على دخان الغليون ...
من القسوة أن تذكر الشيوخ بدنو نهايتهم ..

لكن من الواضح أن الشعوب البدائية تتعامل مع
الموت بأسلوب واقعي عملي يفوقنا بمراحل ، والكل
يعتبره مرحلة طبيعية من مراحل الحياة ..
إذن .. كانت هذه هي رقصة الموت

★ ★ ★

www.dvd4arab.com
Hany3H
www.dvd4arab.com

٢ - الكوخ رقم (٢٢) ..

يوم يوم يوم ! (حتى فى ساعات الفجر) ..

★ ★ ★

مرّت علينا ثلاثة أيام وسط (الكيكويو) ..
كان أسلوبنا منظمًا جدًا لا يترك فرصة للمصادفات ،
ففى البداية قام (بسّام) مع (ليوبولد) بالمرور على
الأكواخ ، وترقيمها بالطلاء الأبيض ، وكان عددها
ثلاثين كوخًا ..

والحق أن سوء فهم كاد يحدث لأن (الكيكويو)
كادوا يجنون رعبًا من تعاويذ السحر هذه .. لكن
(جابرييل) نجح بلباقة فى إقناع الزعيم بأهمية
مانقوم به ، ولم يكونوا حديثى عهد بأساليب
الأوروبيين وولعهم بإجراء التعداد ، لذا وافقوا على
مضض .. وتركونا نضع تلك العلامات على أبوابهم ..
بعد هذا قام (بسّام) بحصر السكان فى كل كوخ ..
وهو أمر عسير فى قبيلة ندعى أكثر أفرادها باسم



وتركونا نضع تلك العلامات على أبوابهم .. بعد هذا قام
(بسّام) بحصر السكان فى كل كوخ ..

(مولجا) .. لذا صار اسم كل فرد يسبقه رقم على
غرار (١٢ - مولجا) .. (٢٦ - مولجا) .. وهو
رقم الكوخ طبقاً ..

بعد هذا كان على أن أتفقد الأكواخ ، وأجرى فحصاً
لحالات الأطفال المرضية ..

وكان الأطفال يعيشون - حقاً - فى أسوأ بيئة
ممكنة ، جنباً إلى جنب مع الماشية وفضلاتها ، لذا
وجدت حالات عديدة من حمى ، أغلب الظن أنها حمى
(مالطة) .. ووجدت حالتين من مرض النوم لم يعد
إنقاذهما ممكناً .. ووجدت حالة واحدة من (الكزاز) ..
دعك من الأقدام المتقرحة ، وأمراض نقص التغذية ،
وسرطان (بيركت) عدو أطفال المناطق الحارة رقم
واحد ..

قمت بعمل ما بوسعى ، لكن الحقيقة هى أن أكثر
الحالات كان بحاجة إلى مستشفى ، ومن العسير أن
نجد سبيلاً لنقل كل هؤلاء إلى (سافارى) ، كما أن
الحكومة الكاميرونية تعتبر هؤلاء (الكيكويو) دخلاء
على الحدود ، وليسوا من رعاياها ..

بعد هذا جاء دور (شلبى) و (أو شيمو) لفحص
الكبار ..

الكبار الذين لم يكفوا عن اعتبارنا مجموعة من
الحمقى البيض ، جاءوا ليجعلوا الحياة مريرة أكثر
مما هى عليه ..

وكانت أمراض الكبار تشبه أمراض الأطفال كثيراً ،
لكن (الملاريا) لدى الكبار كانت أقل حدة .. وقد
استهلكنا كثيراً جداً من (السلفا) و (الكينين)
وحقن (البنسلين) .. لكن ما حققناه كان بعيداً عن
الكمال .. ومن الضروري أن يطلب المدير بعض
الإمدادات الطبية من الصليب الأحمر ، أو الهيئات
الطبية الخيرية الأخرى ..

لكننا لم نجد ما كنا نبحث عنه ..

كانت هناك حالات عصبية حقاً .. كانت هناك حالات
هياج حقاً .. لكن د. (جابرييل) كان هناك دوماً
ليطلق اسماً لاتينياً معروفاً على كل حالة .. هذه حالة
(كزاز) .. وهذه حالة (سعار) ناجمة عن عضه
حيوان .. وهذه حالة (زهرى) بالجهاز العصبى ..
الخلاصة : لا توجد الغاز فى هذه القبيلة ..

★ ★ ★

يوم يوم يوم ! (وحتى عند الغروب) ..

★ ★ ★

بعد انتهاء الأيام الثلاثة جمعنا (شلبي) فى الكوخ
الذى اخترناه لنا ، وراح يراجع التقارير التى جمعناها ..
ثم سأل (هسلر) :

- « هل وجدت شيئاً ؟ »

كان (هسلر) صيدلياً ، وله اهتمام خاص بالنباتات
الاستوائية ذات التفاعلات السامة .. كان ألمانياً أزرق
العينين واسعهما ، له وجه صبيانى مذعور على
الدوام ..

قال (هسلر) فى لهجة قاطعة :

- « لا شيء .. هذه القرية نظيفة تماماً .. »

قال (شلبي) وهو يطوى الأوراق :

- « أعتقد أنه لا جديد يمكن أن نجده .. سأتصل

بالبروفسور (بارتلييه) أقترح العودة غداً .. »

سأله (بسام) غير مصدق :

- « دون أن ننهى عملنا ؟ »

قال بذات اللهجة التى استعملها (هسلر) :

- « قد أنهيناها بالفعل .. لا شيء يثير الريبة هنا ..

وأعتقد أن التقارير التى لدى البروفسور هى مجرد

شائعات ، أو مبالغات .. إن المشاجرات تحدث كثيراً ؛

خاصة حين يكون على قوم بسطاء كهؤلاء ، التعامل مع
الحكومة ، وتفرض عليهم ضرائب مقابل استغلالهم
للأراضى .. عندها لا يجدون للحكومة نفعاً سوى أن
تجعل حياتهم جحيماً .. إن حياتهم بسيطة إلى درجة
أنهم لا يتعاملون بالنقود .. كل علاقتهم بالأوراق المالية
هى أن عليهم الحصول عليها لتأخذها السلطات ..

عاد (بسام) يسأل :

- « والعلماء الستة المفقودون ؟ »

- « حتماً لم يضيعوا هنا .. من السهل أن يذوب

المرء تماماً فى (الكاميرون) ، فلا يعرف أحد آخر

مكان كان فيه .. »

ساد الصمت ، ورحنا نلوك ما فى أيدينا من طعام ..

لقد بدأنا نأكل خليط (الكسافا) الذى يقدمونه لنا ،

ولم نعد نجده رديئاً ..

قال اليابانى وهو يمسح فاه من الخليط اللزج :

- « بالمناسبة .. الكوخ رقم (٢٢) حسب ترقيم

(بسام) ، يضم كل الشيوخ الذين قابلناهم فى

الاحتفال .. لقد مات واحد منهم أمس .. »

- « أحقاً ؟ وسبب الوفاة ؟ »

- « لا أدري .. لكن الشيوخ يموتون على كل حال ،
وهم في ذلك كجهاز الراديو الذي يقرر أن يفسد فجأة
دون سبب .. إن تشريح جثته مستحيل بسبب
عقائدهم هاهنا ، وقد أخذوه ليدفنوه خارج حدود
القرية .. »

- « وما أهمية هذا الخبر ؟ »

- « لا أهمية له .. فهؤلاء القوم يعيشون في
مستنقع من الأوبئة ، ولا يثير دهشتي أن يموت عشرة
منهم في كل يوم .. فقط أقول هذا للدقة الإحصائية .. »
هز (شلبي) كفه كأنما ليغلق صنبور ماء ، وقال :
- « شكراً على دقتك الإحصائية .. والآن لننعم
بالنوم ، فربما كان علينا أن نجرب رحلة العودة
غداً .. »

كان هذا كافياً ، وأطفأ (أوشيمو) كشاف النيون
القابل للشحن ليسود ظلام دامس ، ثم اعتادت عيوننا
ضوء القمر الباهت المتسلل - في حياء - إلى الكوخ ..
الحق أنها أمسية رائعة ، لولا البعوض ودقات
الطبول ..

★ ★ ★

بوم بوم بوم ! (حتى عند الظهيرة) ..

★ ★ ★

وقف (شلبي) يرمق المشهد المهيب في صمت .
ثم أشار لي كي أدنو منه ، ودون أن يبدل اتجاه
نظره قال :

- « يبدو لي هذا أقوى من قوائين الصدفة .. »
ابتلعت ريقى .. وقلت وأنا أتراجع :
- « هذا حق .. لكن كيف نتأكد ؟ »

★ ★ ★

قال د. (جابرييل) وهو يراجع أوراقه :
- « لا أدري يا د. (شلبي) .. كنا متفقين على
أن هذا الاحتمال وارد ، ولا أرى ما يريب فيه .. »
بدل (شلبي) من وضع جلسته ، وقال وردفاه
يؤلماته ، إذ لم يعتد الجلوس على الأرض قط :
- « شيخان يموتان في يومين متتاليين .. ولم يكن
أحدهما يشكو من شيء .. إن الشيوخ يموتون .. هذا
حق .. لكن هناك دائماً تفسيراً للوفاة .. لا بد من
مرض ما .. »

قال (أوشيمو) :

- « أنا فحست هؤلاء أمس .. وكانوا جميعاً بحالة جيدة فيما عدا عجوزين يعانين من هبوط عضلة القلب ، ولم يموتا بعد .. »

تبادلنا النظرات برهة .. وأخيراً شعروا بما شعرت به أنا .. هذه القبيلة ليست على ما يُرام .. ثمة شيء يخفيه هؤلاء القوم عنا .. كنت أشعر به طيلة الوقت لكنى لم أفصح عنه .. إن أنسب طريقة كى تنال المرأة سخرية الرجال ، هى أن تتحدث عن حاستها السادسة .. والسابعة .. والثامنة ..

لكنهم - حمداً لله - ليسوا حمقى إلى هذا الحد ..

أخيراً قال (بسام) ما كنا نفكر فيه جميعاً :

- « يجب أن نرى هذه القبور ! »

نظرنا له جميعاً ولم نعلق .. إن واجبنا لن يكتمل ما لم نغم بهذا الجزء من المهمة .. وتدخّل (جابرييل) ليقول ما كنا نخشى أن يقال :

- « حذار ! هذا خرق شنيع لتقاليد (التابو)

الدينية .. أنتم رأيتم جنازة الشيخ ولاحظتم أن حاملي الجثمان كانوا يمسكونه بقطع من القماش ، وأن أيّاً من النسوة لم يسمح لها بفتح عينيها لترى الجثة ..

ممنوع لمس الميت أو رؤيته ، وإلا صار الفاعل ممنوعاً من لمس الطعام أو الماء .. باختصار يغدو الفاعل نجساً محكوماً عليه بالموت كالأفعى .. هذه هى تقاليد (التابو) التى تعتنقها كل القبائل البدائية .. ومعنى أن نخرق نحن هذا (التابو) أن حياتنا لن تساوى الثرى الذى سنزيحه من فوق تلك الجثة .. » قال (شلبى) فى رصانة وهو يرفع الشعر الأشيب عن عينيه :

- « هذا صحيح .. ولكن فى حالة واحدة : لو عرفوا

أننا فعلناها .. »

ثم أعاد إشعال سيجاره وقال :

- « هذه الليلة نخرج من القرية ونرى مقبرتهم

هذه .. إن فحص الجثة قد يكون كافياً ، وإلا حملنا

معنا عينات إلى (سافارى) .. سأؤجل موضوع

الاتفاق مع بروفيسور (بارتلييه) إلى ما بعد جولة

الليلة الاستكشافية .. »

★ ★ ★

وكذا قضينا وقتنا فى التخطيط لعملية التسلل ..

إن لكل مشكلة صعابها .. فلن تكون مشكلتنا

بالتأكيد متعلقة بالدوائر التلفزيونية ، والخلايا
الكهروضوئية التي تقطع الأبواب ، ولا هي متعلقة
بالكلاب المدربة .. مشكلتنا ستكون متعلقة بالرماح
والمشاعل والآذان المرهفة التي تسمع وثبات
البرغوث فوق الملاعة ..

وعندما جاء المساء خرجنا في ساعة متأخرة لتفقد
أكواخ القرية ..

القوم ودودون حقاً .. ودودون أكثر من اللازم لو
أردت الصراحة .. وهو ما يذكرني بفيلم (جنون)
لـ (هتشكوك) .. كالعادة يكون سفاح الشقراوات هو
الطف وأوسم رجل في الفيلم ..

وما بين كوخ وآخر كان أحدنا ينسل في الظلام ،
ليخرج من السياج الذي يحيط بالقرية .. ونظراً
لانتشارنا كان من العسير تحديد من الموجود ومن
المختفي .. وهكذا يمكن القول إن (ليوبولد) و (بسام)
و (أوشيمو) قد تمكنوا من مغادرة القرية ..

بعد قليل تسألنا أنا في الظلام وكانت القرية قد
نامت أو كادت ، ولم يكن هناك حراس .. كان الأمر
أسهل مما توقعت ..

سيبقى (شلبي) و (جابرييل) لتغطية اختفائنا ،
ومعهما (هسلر) ..

فقط على أن أجد الآخرين على ضوء القمر الخافت
الذي يجيء في خفر من وراء سحابة ما ..
كان (بسام) واقفاً في الظلام وقد أحاط كشافه
بكفه ليقلل من انتشار ضوئه ، وسمعتة يناديني
بهمس مسموع :

- « بست ! (برنادت) ! هنا .. »

لحقت به وقلبي يثب في فمي ، وسرني أن رأيت
الحارس (ليوبولد) ضخم الجثة قد أمسك بمسدسه ،
أما (أوشيمو) فكان يلوح برفش معلناً استعداداه
للبدء .

- « ومن أين نبدأ ؟ »

- « بالاستبعاد : ليس بقرب النهر ولا قرب غابة
(الماهوجني) .. إنهم يدفنون موتاهم في مكان قفر ،
ويدفنونهم جالسين ، وفي وضع مرتفع عن الأرض
بعيداً عن الضباع .. »

كراالش !

سمعت الصوت تحت حذائي فقلت لنفسي :

إننى (دعست) شيئاً زجاجياً هشناً .. زجاجياً ؟ غريب
هذا ! ليس الزجاج من الأشياء المنتشرة جداً فى
الدغل ..

- « كشافك يا (بسام) .. »

- « لماذا ؟ هل هناك ثعب ؟ »

لكنى كنت أسلط ضوء الكشاف على الأعشاب تحت
قدمى ، وانحنيت لألتقط هذا الشيء .. ووضعتة على
كفى ثم نهضت .

تأمله الآخرون فى صمت بضع ثوان .

وفى صوت مبحوح تساءل (أوشيمو) :

- « هل فقد أحدنا عويناته ؟ لعله (هسلر) ! »

قال (بسام) وهو يلتقطها بين أنامله :

- « بالطبع لا .. لقد كان يرتدى عويناته منذ عشر

دقائق .. وكذلك (شلبى) .. هذه العوينات من مصدر

خارجى .. »

وتحسّس الذراع الملتوى ، والزجاج المهشم وقال :

- « أجرؤ على القول إن هذه العوينات تخص أحد

العلماء الستة المفقودين .. نحن لم نر صورهم ..

لكن كل العلماء يضعون العوينات .. »



لكنى كنت أسلط ضوء الكشاف على الأعشاب تحت قدمى ،

وانحنيت لألتقط هذا الشيء ..

الجزء الثالث

عن النجدة التي لا تجيء

بقلم د. علاء عبد العظيم

« مشكلة التشخيص الطبي شبيهة بمشكلة العميان الذين وجدوا فيلاً .. فتحسس أحدهم خرطومهم وقال : الفيل أشبه بالفرشاة . وتحسس أحدهم ذيله وقال : الفيل مروحتان عملاقتان .. »

« وفي الطب نقابل هذا الموقف كثيراً .. نعالج الإسهال على حدة .. وداء البول السكري على حدة ، ولا يخطر ببالنا أن ننظر للأمر نظرة شمولية فنذكر أنه سرطان البنكرياس ! »

- « ولماذا سقطت هنا ؟ »

- « بالتأكيد لأن صاحبها لم يعد بحاجة إليها ! »
وتنهدت قائلة وأنا أرتجف :

- « (الكيكويو) يكذبون .. ولكن لماذا يكذبون ؟
لماذا ؟ »

ولا أدري كم من الوقت وقفنا هناك نتبادل النظرات المتوجسة ..

وصوت الضحكات المجنونة يدوي من بعيد

★ ★ ★

www.dvd4arab.com
Hany3H
www.dvd4arab.com

١- الآن يجيء دورنا !!

فرغ (جيديون) من عرض صورته علينا ،
وتفسيرها ..

فما إن انتهى حتى نهضت صارخاً :

- « هل رأيت يا (بروفيسور) ؟ كان علينا تأجيل
الحملة حتى نفرغ من تقارير (الباثولوجى) .. لكنك
لم تصغ لى ورحت تتحدث عن المشاة الذين يحتلون
المواقع الأمامية .. »

نظر لى (بارتلييه) غير مصدق أننى أكلمه بهذه
اللهجة ، وارتج عليه كدأبه كلما عومل بعنف .. ثم
استجمع أعصابه وقال :

- « اسمع أيها الشاب .. أنا لن أسمح لك بأن
تخاطبنى بهذه اللهجة .. لن أسمح لك أبداً .. »

- « ولكن الأمر خطيب .. »

- « أطلب منك اعتذاراً الآن وإلا يمكن لوحدة
(سافارى) الاستغناء عن خدماتك حالاً .. إن خسارة
(بلطجى) لن تؤذينا كثيراً .. »

- « ولكن .. »

- « الآن ! »

- « ليكن .. اعتذر .. »

قلتها فى تهذيب .. فلم يكن أول ما أتمناه هو أن
أطرد من (سافارى) لأعود خالى الوفاض إلى
(مصر) ، مع اتهامى بقلة الحياء ..

قال (جيديون) وقد بدا مستمتعاً بكل هذا :

- « دعنا من هذا التطويل ، ولنتفق الآن على
منهجنا فى العمل .. أرى يا بروفيسور (بارتلييه) أن
تطلب عودة الحملة دون إبطاء .. »

- « كنت أتمنى هذا .. » - قال (بارتلييه) هذا
وقد بدأ يهدأ نوعاً - « لكن جهاز اللاسلكى الذى يحملونه
قد تعطل أو تهشم .. »

- « إذن لا مفر من طلب وزارة الصحة .. »

- « هذا حق .. ولسوف يقومون بترتيب الأمر مع
الجيش .. لا أجد حلاً آخر .. »

ومد يده إلى أزرار الهاتف ، قبل أن يقول :

- « الحق أننى كنت أفكر فى حملة ثانية .. لهذا
طلبت (علاء) .. فهو شاب متحمس ويتمتع بعدوانية
لا بأس بها ، مما يناسب حملتنا هذه .. »

نظر لى (جيديون) فى مكر ، وقال :

- « أنا متأكد فقط من نقطة العدوانية هذه .. لكن دعنى أصارحك يا سيدى ، إن الوضع هناك غامض تمامًا ، وقد يحدث أى شىء .. فلا أجد جدوى من إرسال حملة ثالثة لا تعود بدورها .. لقد فقدت منظمة الصحة العالمية ستة من رجالها ، وفقدت (سافارى) ستة عناصر ممتازة ، أو هى فى سبيل فقدها .. أرجوك لا داعى لزيادة عدد الضحايا .. »

قلت للمرة الأولى منذ تم توبيخى :

- « لكن الحملة الثالثة تعرف ما ينتظرها .. وهذه نقطة فى صالحها .. »

قال المدير وهو يعاود لمس أزرار الهاتف :

- « ليكن يا (علاء) .. يمكنك الانصراف ، وأبق ما قلناه لك سرًا .. لكن كن على أهبة الاستعداد .. »

★ ★ ★

فى الصباح جلست فى عيادة الأمراض الباطنية مع د. (دوالا) .. سألتنى عن أخبار الحملة فقلت له كاذبًا : إنها بخير ..

ثم لم أجد قدرة على الكتمان .. تذكرت قصة الحلاق

الذى كان يحلق للملك ، وكانت لدى هذا الأخير أذنان هائلتا الحجم ؛ وكان الحلاق يكتم السر تحت طائلة الإعدام .. أخيرًا كاد الكتمان يقتله .. فراح إلى الغابة وحفر حفرة كبيرة ، وركع جوارها وراح يهتف : الملك له أذنان كبيرتان ! الملك له أذنان كبيرتان !

فى الصباح خرجت من الحفرة نبتة لها ألف زهرة ، كل زهرة تهتف بأعلى صوتها : الملك له أذنان كبيرتان !

المغزى : كتمان السر مرهق لأقصى حد .. لكن البوح به كارثة .. لكنى - برغم هذه القصة - لم أستطع الكتمان أكثر .. حكيت لـ (دوالا) كل مخاوفى وهمومى ، وكالعادة طلبت منه ألا يخبر أحدًا ..

سألته أملًا أن يقول ما يريحنى :

- « كل هذا هراء .. أليس كذلك ؟ »

ضاقت عيناه من وراء عويناته ، وقال بلهجته الإفريقية التى تحيل كل (سين) إلى (ثاء) :

- « لا تعتمد على هذا .. إن (جيديون) بارع فى عمله حقًا .. »

قلت فى زعر :

- « وهل يتفق هذا مع ما تعرفه عن (الكيكويو) ؟ »
- « لا يتفق .. لكن (الكيكويو) الحقيقيين يعيشون
فى (أوغندا) و (إفريقيا الوسطى) .. أما هؤلاء
فقد اختلفت طباعهم كثيراً .. »

- « وهل ستتدخل وزارة الصحة حقاً ؟ »

- « لا أظن .. فلا يوجد وباء واضح .. ولا توجد
مشكلة قوية .. لو كانت هناك مشكلات فمن الواضح
أنها هدأت .. ولا تنس أن (الكيكويو) ليسوا فى
عداد المواطنين هنا ، ولن تنفق الحكومة مليماً من
أجل رفاهيتهم .. »

قلت له ما معناه :

- « فال الله ولا فالك .. »

★ ★ ★

على أن الرجل كان يعرف حكومته جيداً ..
وعند العصر استدعانى (بارتلييه) ليخبرنى أن
وزارة الصحة (ستبحث الموضوع) ، وهذا معناه أن
ثلاث أو أربع سنوات ستمر قبل أن يقرر هذا الموظف
أو ذاك أن يمسك بملف (الكيكويو) ليرى حقيقة هذا
(الموضوع) .. توطئة لأن يعلن أنها شوشرة مدبرة ..

وسألنى فى انكسار :

- « هل أنت مستعد للرحيل ؟ »

- « بالتأكيد .. »

- « وما سرّ هذا الحماس المفاجئ ؟ »

قلت له فى كبرياء ، وكنت أظنه يفهم جيداً دون أن

يسأل :

- « سيدى .. لست ممن يضحون بحياتهم من أجل
الإنسانية أو تقدم العلم أو ما إلى ذلك .. فكلها تبدو
لى شعارات بلا معنى .. لكنى أضحي بحياتى بالتأكيد
من أجل أسرتى وأصدقائى .. هنا يغدو للكلام معنى
ملموس ، ويمكننى - فى لحظة الاحتضار - أن أنظر
إلى السماء .. وأقول لنفسى إننى مت لسبب واضح
محترم .. »

- « هذا منطقى .. لكنى أرجو ألا تضطر للموت
وأنت ترمق السماء .. فأنت - كما قلت - تعرف
ما ينتظرك .. »

ثم مَدَّ يده إلى صندوق جوار مكتبه ، فوضعه على
المكتب وقال :

- « هذا هو ما حصلت عليه .. قنابل دخان .. »

قنابل مسيلة للدموع .. أفقعة غاز .. مسدسات إشارة ..
وخطة جيدة .. »

- « هذا جميل .. لكن ماذا عن القتل ؟ »

- « لن يكون هناك قتل .. أنت طبيب ولست جنرالاً
بريطانياً .. »

- « أعرف هذا وأتمناه .. لكن الخطر وارد .. »

- « سيكون معكم بنادق آلية .. لكن لا تستعملوها .. »

- « نحن ؟ »

ابتسم وقال وهو يتفقد محتويات الصندوق :

- « طبعاً .. فأنت لن تذهب وحدك .. إن (رامبو)

يفعلها في السينما ، لكنك لن تتقاضى راتب (سلفستر
ستالون) أبداً ! »

- « ومن أعضاء الفريق ؟ »

- « (بودرجا) - كالعادة - و (أندرسن) و (نظير) .. »

- « مصري وكامبروني وسويدي وهندي .. مجموعة

غريبة حقاً .. »

- « كلكم - باستثناء (بودرجا) - شباب عصبيون

متحمسون متعطشون للدماء ، وعلى شيء من الخرق ..

وهذا يناسب الموقف .. »

ثم قال بلهجة رسمية صارمة :

- « د. (عبد العظيم) .. استعد للتحرك في الساعة

مساءً .. »

★ ★ ★

وفي المساء وقفنا في ضوء الكشافات يرمق بعضنا
البعض .. كنت مرتاحاً لـ (بودرجا) رفيقى الدائم
التعس في المصائب ، لكنى لم أكن أعرف الاثنين
الآخرين جيداً ، وبدا لى (أندرسن) ثقيل الظل نوعاً ..
لكننا لسنا ذاهبين إلى الملاهى بطبيعة الحال .. وكان
يعمل خبير أوبئة في الصحة العالمية قبل أن يلتحق
بـ (سافارى) ..

ورفعت رأسى لأعلى لأرى عشرات الوجوه ترمقنا
في فضول من النوافذ والشرفات .. لقد خرج كل
عاملى (سافارى) لرؤية هذه اللحظة النادرة : أربعة
رجال يذهبون إلى الجحيم ..

خفضت عيني كي لا أرى هؤلاء الحمقى ، وسألت
(بودرجا) :

- « هل تأكدت من كل شيء ؟ »

هز رأسه في تعاسة ، وبصق جذوره الحمراء التى
يلوكها دوماً :

٢ - قرية أخرى ..

قال (أندرسن) وهو ينظر إلى ساعته :
- « أماننا ربع ساعة ونصل إلى أولى القرى
يا (جومبا) .. »
قلت له وأنا أصدم رأسي بالسقف ، كعادتي منذ
ركبنا السيارة :
- « آى ! نريد ذات القرية التى أوصلت إليها الفريق
السابق .. »
قال (جومبا) بفرنسية شنيعة :
- « لم تخبرنى بهذا من قبل يا دكتور .. معنى هذا
أن ندور حول الدغل ، ونطيل رحلتنا ساعتين أخريين ..
إن قرى (الكيكويو) كثيرة ، ولم تحدد لى إحداها
بالذات .. »
قال (أندرسن) نافذ الصبر وهو يمشط شعره
الذهبي :
- « ليكن .. سنبدأ بهذه .. على أن تعود لنا بعد
يوم .. »

- « تفو ! كل شىء يا دكتور .. وكم أود لو أخذتم
غيرى .. كأنه لا يوجد سواى فى هذا المستشفى ! »
- « إتانا نعتمد على خبرتك بلغات وعادات الأهالى .. »
- « إن ما أعرفه عن (الكيكويو) لا يزيد على
معلومات (الكيكويو) عن (باريس) .. والحق أننى
راغب فى إعفائى من كل هذا .. »
لقد فات الأوان ..
فقد راحت مروحة الهليوكوبتر تدور .. وتدور ..
معلنة أن أوان الرحيل قد جاء ..
ترى كيف رأنا أولئك الواقفون ، ونحن نتلاشى فى
الظلام وسط الهدير والغبار والأضواء المتقطعة ؟
طائر الموت يحمل فرائسه إلى الجحيم ..

★ ★ ★
www.dvd4arab.com
Hany3H
www.dvd4arab.com

وصلنا إلى القرية التي كانت محاطة بسياج بدائي ..
وشمنا رائحة بول الأبقار (النوشادية) إياها ،
وهي الرائحة التي اعتدنا شمها لدى (البانتو) ، وكل
القبائل الذين يحبون دهان رعوسهم بهذا السائل
الشنيع .. ولمحت نساء (الكيكويو) صلح الرعوس
بأحمالهن المميزة على ظهورهن .. والأقراط العملاقة
إياها التي تجعل شحمتي الأذنين تصلان إلى أعلى
الكتفين ..

اتجهنا إلى الزعيم وسط حشد الفضوليين إياهم ..
كان أصلع الرأس يرتدى حلياً أكثر من اللازم ،
وكان مهيباً كما للزعماء أن يكونوا .. لكنه يضحك
في مودة كاشفاً عن أسنان بيضاء ..

قال (بودرجا) بعد محادثة مختصرة مع الرجل :
« أعتقد - أنى لا أجيد لغتهم كما تعلمون - إنه
يرحب بنا ، وسيضع كل إمكانيات القبيلة تحت تصرفنا .. »
سأله (نظير) وهو ينزل حقيبة ظهره الثقيلة :
« سله عن الحملة السابقة .. هل سمع عنها
شيئاً ؟ »

قال (بودرجا) بعد محادثة مختصرة أخرى :

- « يقول إن هناك عشر قبائل هاهنا من (الكيكويو) ..
فلماذا نسأله هو بالذات عما لا يعرف ؟ »

- « وماذا يعرف عن الوباء ؟ »
هنا أجاب الرجل إجابة بليغة جداً .. مطّ شفتيه
وأصدر صوتاً خاصاً جداً هو : ف ف ف !
- « إنه يقول .. »

- « لا داعي للترجمة .. يقول : هذا هراء ! »

★ ★ ★

وفي كوخنا الذي اخترناه للسكنى ، كان علينا أن
نزيل كل روث الماشية وفضلات الدجاج و ... و ...
قال (أندرسن) وهو ينزع حذاءيه الثقيلين :

- « إن لهؤلاء القوم عادات غريبة .. روث الماشية
في كل مكان حتى على أبواب الأكواخ .. »
سألته في دهشة من لم يلحظ هذا :
- « أحقا ؟ »

- « نعم .. ألم تر باب كل كوخ ؟ يضعون القاذورات
على يمينه كأنما هي عادة يتفعلون بها .. »
- « إن الثقافات تتباين .. »

قال (بودرجا) وقد رأى أن يدلى بدلوه :

- « الغريب أن أكثر أسماء هؤلاء هي (مولجا) ..
ما فائدة الأسماء إذن ؟ »

قال (نظير) باسمًا :

- « يذكرني هذا ببعض قرى (ماليزيا) .. يقولون
إنك لو رميت حجرًا من فوق جبل ، لكانت الفرصة
تسعين بالمائة في أن يسقط الحجر فوق رأس من
يُدعى (محمد توار) ! »

ساد الصمت برهة .. ثم قال (أندرسن) بلهجة
حادّة :

- « والآن .. من يتولى قيادة مجموعتنا هذه ؟ »

قال (نظير) وهو ينظر لى بعينين شديديتى السواد :
- « بالطبع د . (عبد العظيم) .. فهو أكثرنا علمًا
بالموضوع .. ويخيل لى أنه يعرف أكثر مما يقول ..
وهذه - لعمرى - نقطة شديدة الخطر .. فما دمنا فى
ذات السفينة فمن الخير لنا جميعًا أن نعرف بشأن
العواصف القادمة .. »

كاذبًا قلت وأنا أتحاشى نظراتهم :

- « أنا لا أعرف سوى ما تعرفون .. صدقونى ..
لكنى - حتمًا - أقبل أن ترشحونى قائدًا .. فإن لم يكن
فأنا أرشح (أندرسن) .. »

بالطبع لم أعلن سبب ترشيحى لـ (أندرسن) ..
فالأشخاص الذين لا يبالون بأن يكونوا ثقيلى الظل ،
ولا يبالون بارتياح الآخرين لهم ؛ هؤلاء الأشخاص
يكونون دائمًا قادة ممتازين .. خاصة إذا كانوا أكفاء
مثل (أندرسن) .

قال (أندرسن) فى برود :

- « أنا غير راغب فى هذا الشرف العظيم .. والآن
ما هى خطتنا هاهنا ؟ »

هذا معناه أنى القائد .. لذا قلت فى برود مماثل :

- « سنقوم بفحص كل مرضى هذه القبيلة ، ونلاحظ
عادات هؤلاء القوم جيدًا .. لن نجد شيئًا مهمًا فى
الغالب ، لأن هذه القرية ليست ذات القرية التى زارها
أصدقائنا .. فى الغد نتجه إلى القرية المنشودة حيث
الخطر الحقيقى والعمل الحقيقى .. »

★ ★ ★

راحت الطبول تهدر ..

وسمعنا صوت جوقة رجالية تتبادل الغناء مع
جوقة نسائية ، وكان تناغم الأصوات رائعًا حقًا ..

خرجنا من الكوخ لنرى المشهد التقليدي : النار
مشتعلة ، وأفراد القبيلة يرقصون حولها .. وتذكرت
هنا ملحوظة قرأتها في كتاب (إفريقيا ترقص)
للمستكشف الإنجليزي (جيفري جور) .. كان قد
لاحظ أن أفراد القبائل البدائية عراة تماماً إلا في أوان
الرقص .. عندها يرتدون الجلابيب والأقنعة والريش
وكل ما من شأنه أن يخفي أجسادهم ..

لم يكن القمر بدرًا بل كان أقرب إلى الهلال ، وهذا
غير معتاد في الرقصات الإفريقية الدينية ..
قال (بودرجا) وقد بدأ نصفه السفلي يتحرك
لا شعورياً مع الإيقاع ..

- « هذه رقصة (جافارا) .. قادمة من (فولتا
العليا) .. إنها تمجد (الطووم) الذي يحمي القبائل
من الوحوش .. »

وتأملته في اهتمام .. لم يكن لاهياً بل هو الجذ
بعينه .. هنا فقط صدقت حقيقة أن الإفريقي يسمع
الموسيقا بجسده قبل أذنيه ..

رحنا نتأمل الرقصة في اهتمام .. فهذه أشياء
لا يراها المرء مرتين ..

ودنا (بودرجا) - دون أن يكف عن الاهتزاز -
من أحد الراقصين ، وراح يسأله والراقص يجيب وهو
يتواثب كالبرغوث ..

ثم عاد (بودرجا) ليقول لنا :
- « إنها رقصة إعداد الشيوخ للموت .. يمارسونها
أسبوعياً .. »

وبالفعل رأينا ستة من الشيوخ الفاتين يخرجون
ليمشوا في صف واحد نحو الزعيم ، الذي راح يلوح
بسكين عملاقة على سبيل تمثيل القتل ، وراح كل
شيخ يمثل الموت ..

بعدها جاء ثور عظيم لينهالوا عليه جميعاً بنصال
المدى .. وهو مشهد مروّع حقاً .. وحمدت الله على
أنهم لم يذبحوا بقرة حتى لا يفقد (نظير) أعصابه ،
فهو هندوسى لا يتحمل رؤية بقرة تذبح .. من الأكثر
خيالاً ؟ عابد الأبقار أم عابد (الطووم) الذي يحاول
إرضاءه بذبح الأبقار ؟

جاء رجلان يحملان فخذ ثور ووضعها أمامنا بما
معناه أن هذه هديتنا .. فهزنا رءوسنا شاكرين ..
وقفنا نرملق المشهد الرهيب ، ثم وجدت (أندرسن)

يجذبني من كمي في إشارة معناها (هل ترى
ما أراه ؟)

نظرت إلى اتجاه نظراته ، فرأيت أحد الراقصين
المقنعين يترنح في حركات عصبية مبالغ فيها .. كان
يتواثب .. تتفكك قدماه ليهوى على الأرض .. ينهض ..
يواصل الرقص المجذوب ..

كان يقهقه بصوت عال مجلجل .. وحين نظرت إلى
قدميه أدركت أنه فقد التحكم في مثانته ، فالبول كان
يتساقط منه دون أدنى محاولة للسيطرة من جانبه .
كان هذا كافيًا لأن الرجال أحاطوا به ، وحملوه
مبتعدين ..

هرعنا لنلحق بهم ، لكن الزعيم (مولجا) رفع كفه
في وجهنا وهو يضحك كاشفًا عن أسنانه البيضاء
المدببة ، وقال بضع عبارات ترجمها لنا (بودرجا) :
- « يقول ألا نقلق .. فهذا الرجل أفرط في احتساء
الخمير المحلية المصنوعة من جذور (الكسافا)
المختمرة .. سيكون على ما يرام عند الصباح .. فلا
داعي لإفساد الحفل .. »

★ ★ ★



نظرت إلى اتجاه نظراته ، فرأيت أحد الراقصين المقنعين يترنح
في حركات عصبية مبالغ فيها ..

في كوخنا وجدت (أندرسن) جالساً على ضوء
كشاف (النيون) المتألق يمسك بكتاب طبي سميك ،
فما إن رأني حتى قال ما كنت أنتظر أن يقوله :
- « ما رأيك ؟ »

جلست وقلت وأنا أتهد :

- « مثل رأيك .. »

- « هذا الرجل ليس ثملاً .. ما هكذا يتصرف
السكراني .. إنه مصاب بخلل في المخيخ .. لهذا فقد
قدرته على التوازن .. »

- « وماذا تقول لو كان هذا الخلل وبائياً ؟ »

ضاقت عيناه الزرقاوان وقال :

- « لا يمكن أن يكون وبائياً إلا في داء (الكورو) ..
ولكن (الكورو) ليس موجوداً في (إفريقيا) .. إنه
مقصور على قبائل الـ (فور) في (غينيا الجديدة) ..
وبالتحديد في الشرق .. جنوبي جبل (ميشيل) (*) .. »
- « يبدو أنك كنت هناك .. »

(*) بابو غينيا الجديدة : جزيرة تقع قرب (أستراليا) شمالاً ..
ومازال أهلها على الفطرة ..

- « لا يمكن لخبير أوبئة ألا يزور (غينيا الجديدة) ..
إن كل شيء موجود هناك .. »
قلت له وأنا أزن كلماتي :
- « حتى لو لم يكن (الكورو) .. هل توافقني
على أنه فيروس بطني ؟ »
- « لو كان وبائياً فلا يوجد تفسير آخر .. »
وظللنا نتبادل النظرات لمدة لا يعلم سوى الله
(سبحانه وتعالى) طولها ..

★ ★ ★

كيف نتأكد ؟ كيف ؟

★ ★ ★

www.dvd4arab.com
Hany3H

www.dvd4arab.com

٢- كورو !

ثمة حلقة مفقودة .. لكن ما هي ؟

★ ★ ★

عند منتصف الليل عاد لنا (بودرجا) من الحفل ..
كان ثملاً تماماً بعد ما شرب أنهاراً من خمر هؤلاء
القوم ، تباً له من أحمق ! راح يغنى أغاني (البانتو)
ويتأرجح ويقول ما معناه (أنا جدع) بلغته ..
أسند (نظير) رأسه إلى باب الكوخ ، وهو يوبخه
بعنف :

- « تباً لك من طفل ! كأن هذا ينقصنا .. هات دلو
الماء يا (علاء) !

ناولته الإناء الجلدي الذي ملأته لنا النسوة من
النهر ، فرفعه ودون رحمة قذفه في وجه (بودرجا) ..
انتثر الماء في كل صوب ، وبدا الإفريقي كأنما تلقى
صفعة عاتية على وجهه ، فراح ينظر لنا مذهولاً ،
لسان حاله يقول : أين أنا ؟

شرعت أعيده إلى الكوخ ليغفو هناك ، حين وجدت
(أندرسن) يقف جوار مدخل الكوخ يتأمل شيئاً ما ..
- « ماذا هناك ؟ »

كان الماء قد غسل جزءاً من الجدار المجدول ،
وتساقط جزء من روث الماشية الملتصق به ، من ثم
استطعنا أن نرى رقمًا كتب بفرشاة بيضاء بحروف
عربية ..

أزال (أندرسن) مزيداً من القاذورات بخرقة مبتلة ،
واستطعنا أن نرى بوضوح تام الرقم (12) ..
- « من رسم هذا ؟ »

قلت وأنا أتأمل المشهد واجماً :

- « بالتأكيد أحد أصدقائنا المختلفين .. هذا هو
أسلوب (سافاري) في ترقيم الأكواخ .. ولم يجد
رجال القبيلة طريقة لمداراة هذه الأرقام سوى
بتغطيتها بالقاذورات .. »

نظر لي (أندرسن) قلقاً :

- « إذن هؤلاء القوم يكذبون .. »

- « وهذا لا يعني خيراً فيما يتعلق بمصير

السابقين .. »

- « وسائقنا كذلك كذب حين اقتادنا إلى القرية ذاتها زاعماً أنها ليست هي .. »

- « لا بد أنه من (الكيكويو) الذين استقروا في المدينة .. »

- « الأمر كله العوبة تم تدبيرها بإحكام لتغدو مصيدة للحمقى .. »

واتجهت إلى صندوق السلاح ، فتحقت من أن البنادق في مكانها ، وقلت بلهجة أمره :

- « لم يبق أماننا سوى الفرار .. فالسائق لن يعود .. »

قال (أندرسن) :

- « ثمة نقطة في صالحنا هي أنهم لا يعرفون أننا نعرف .. لذا دعنا نعد تغطية الرقم المكتوب على الكوخ ، وفي الصباح نخرج لهم بوجوه بريئة مشرقة ونعلن أننا نريد زيارة قرية أخرى .. »

- « ومتى نعرف الحقيقة ؟ »

- « سنعرفها حين نعود مع كتيبة من الجنود المسلحين .. »

قال (نظير) مؤمناً :

- « هذا حق .. محاولة الفرار الآن ستخبرهم أننا عرفنا أكثر مما يجب .. وعندها قد نقتل عشرة منهم بأسلحتنا قبل أن يمزقنا الباقون .. »

نظرت لهم وبدا الكلام مقتعاً .. فهزرت رأسى وأعدت إغلاق الصندوق .. لكنى كنت أعرف أية ليلة سوداء تنتظرنا ..

كان على أن أكف عن الإرسال ..

★ ★ ★

(برنادت) .. أين أنت ؟

أتراك زوجة الزعيم تعدين له (الكسافا) ؟ أم تراك في قبر بين هذه الأدغال ؟ أم تراك في معدة أحدهم ؟

المصيبة هي أن كل هذه الاحتمالات شنيعة ..

لكنى لا أجد احتمالات أخرى أكثر بهجة ..

★ ★ ★

وفي الساعات الأولى من الفجر تم كل شيء بسرعة ..

أنتم تعرفون كيف تتم هذه الأشياء السخيفة .. لهذا لن أطيل الوصف .. يكفي أن أذكر أن اليد التي كملت

فمى كانت قذرة جداً ، وأن (بودرجا) لم يقاوم ..

وأن (أندرسن) وجه لكمة إلى فك أحد المعتدين ،
لكنه - جزاءً وفاقاً - تلقى ضربة مروعة بالهراوة
على مؤخر عنقه .. وبالطبع لم يستطع الطبيب
السويدي الضعيف أن يظل على قدميه حتى ولو كان
ثقيل الظل ..

لقد صرنا تحت رحمتهم تمامًا .. ولكن أين قدر
الماء المغلى ؟ يبدو أنهم لم يصلوا درجة التحضر
التي تجعلهم يعافون اللحم النيء ..

★ ★ ★

وفي هواء الفجر البارد ، شعرت بهم يحملوننا .
- ثلاثة رجال لكل واحد منا - إلى خارج القرية .. لم
نقاوم فالمقاومة ستزيد الأمور سوءًا ..
وسمعت صوت الزعيم يصدر بغلظة تعليماته
لرجالته ..

لقد انتهى عصر المودة والضحكات التي تكشف عن
الأسنان البيضاء المدببة .. لقد كانوا عمليين جدًا ..
لكني كنت الوحيد الذي يملك فكرة معينة عما ينتظرنا
ها هنا ..

كنا الآن قد اجتزنا حاجزًا من الأشجار ، وها نحن

أولاء في فرجة منها .. واستطعت أن أسمع صوت
ضحكات .. ضحكات مجنونة مجلجلة .. ورأيت - في
وضع أفقى بالطبع لأنني محمول - سياجًا .. لا .. بل
هي أقفاص خشبية .. تم صنعها من أغصان الأشجار
المجدولة بحبال من ليف ..

وبالداخل رأيت العيون البيضاء تلتمع .. تدور في
محاجرها كعيون المجانين .. ورأيت العيون في أجساد
سوداء مترنحة ، لا تكف عن القهقهة ، تقهقه حتى
تسقط على الأرض .. تقهقه حتى تفقد توازنها
وترتطم بقضبان القفص ثم تهوى من جديد ..

يا للعذاب البشري ! لقد رأيت في حياتي صورًا
مريعة للألم .. لكني لم أر قط الألم الذي يقهقه
صاحبه كالقروود ..

في مرض الكزاز (التيتانوس) يضحك المريض
ضحكة صفراء كاشفاً عن أسنانه ، ويسمونها
(الابتسامة التهكمية) ..

لكني لم أر قط قهقهة كهذه .. ولم أسمع عنها إلا
في مرض واحد فقط ..

★ ★ ★

وانفتح أحد الأقفاس ، وشعرت بأثني أطير في
الهواء لأسقط على الأرض دون رفق ..
ورأيت - في ضوء النهار الوليد - (نظير)
و (أندرسن) و (بودرجا) يطرون بدورهم ليسقطوا
جوارى ، ثم رفعت عيني فوجدت وجوها مألوفة ..
وجوها ظننت أنني لن ألقى أصحابها أبداً .
وشعرت بيد رفيقة تسند رأسي .. وثمة شعر أشقر
ينحني على .. ثم سمعت الصوت الحاني يقول :
- « (علاء) ! حمداً لله على أنك بخير .. لكن أية
حماقة ! »

قلت وقد بدأت أفهم ما هنالك :
- « (برنادت) .. حمداً لله على أنك بخير .. لكن
أية كارثة ! »
دنا (بسام) منى على ركبتيه .. وساعدنى على
الجلوس ، ثم سألتني :
- « هل آنوك ؟ »

- « لا .. فقط عاملونى كجوال من الأرز .. »
وهنا رأيت الكدمات على وجهه ، وأدركت أن جرحاً
قطعيًا يقسم شفة (برنادت) السفلى إلى نصفين شأن

من تلقت لكمة في فمها .. وحين رفعت عيني رأيت
أن (شلبي) كان أسوأ حالاً .. وأن (ليوبولد)
حارس الأمن ليس معهم .. هو ميت طبعاً .. فلا
تفسير لاختفائه سوى هذا .. أما (جابرييل)
و (أوشيمو) فكانتا على ما يرام كما اعتقد ..

قال (نظير) وهو يتحسس نبض عنق (أندرسن) :
- « سيفيق بعد قليل .. ما لم يكن ارتجاجاً .. »
قلت وأنا أنهض على قدمين من عجين :
- « يبدو لى أنكم قاومتكم أكثر منا .. »
قالت (برنادت) :

- « لأنكم أخذتم على حين غرة .. أما نحن فكنا
نتوقع الغدر .. فجأة وجدنا أنفسنا وسط هذه الأقفاس ،
وكان هناك عشرة من رجالهم انهالوا علينا ضرباً
وركلاً قبل أن نفهم ما يحدث .. »
- « وأين العلماء الستة ؟ »

- « لا ندرى .. »
- « وأين (هسلر) و (ليوبولد) ؟ »
- « أكلوهما ! »

★ ★ ★

دوت الكلمة فى القفص فتجمد الجميع ..

كان قائلها هو (شلبى) - بكسر الشين وتسكين اللام - الذى جلس على الأرض ، وشعره الأشيب يغطى إحدى عينيه ، وهو يلوك آخر سيجار لديه ..
وقد قال كلمته فى برود وموضوعية ، كأنما يتحدث عن تجربة علمية ، يلعب فيها دور المراقب المحايد ..
وكأنما قال لنا إنهما - (ليوبولد) و (هسلر) - ذهباً إلى الحمام أو سافرا للنزهة ..

صاح (نظير) فى رعب وهو ينهض :

- « ما هذا ؟ إن (الكيكويو) لا يأكلون لحوم البشر ! »

بنفس البرود قال (شلبى) وهو يطلق حلقات الدخان من فمه :

- « هؤلاء يفعلون .. إنهم لا يلتزمون بالكتب كما هو واضح .. »

- « وأنتم رأيتم هذا ؟ »

- « بالطبع .. فى البدء أقاموا الحفل الصاخب فى القرية .. ثم جاءوا ليأخذوا اثنين من القفص .. »
سألته وأنا أتماسك بصعوبة بالغة :

- « هل يقيمون هذه الحفلات كثيراً ؟ »

- « مرة أو مرتين فى الأسبوع .. وأحياناً يعتمدون على كبار السن الذين رأيناهم فى الاحتفال .. إن الشيوخ يقبلون هذا الواجب برضاً تام ، ويعتبرونه تضحية دينية تستوجب الاحترام ! »
- « ومتى يقيمون الحفل التالى ؟ »
- « لا أحد يدري .. ربما الليلة .. ربما بعد ثلاثة أيام .. »

- « وسيأكلون اثنين منا ؟ »

قال فى ملل وهو يطفئ السيجار ويدسه فى جيبه :
- « إنهم يتعاملون معنا كدجاج ينتظر فى عشه .. يفتحون باب العش وينتقون أسمن دجاجة أو دجاجتين متوسطتى الحجم .. الأمر مزاجى تماماً كما ترى .. »
سأله (نظير) فى رعب ، وقد بدأت أعصابه تتخلى عنه :

- « وكيف تقبل ما يحدث بهذا الهدوء ؟ »

- « لقد مررت بمرحلة الرفض هذه ، واستعددت للموت بعدها .. ثم إن ما لدى من سيجار قد انتهى ، ولم تعد الحياة مما يثير شغفى ! »

ونهدت مترنحاً أتفحص القفص الخشبي .. كانت
قضبانته غليظة حقاً من العسير التفكير في تحطيمها ..
أما الباب فكان مغلقاً بجنزير حديدى ثقيل يثبته قفل
متين من طراز (بيل) ..
هؤلاء القوم ليسوا بعيدين عن الحضارة إلى هذا
الحد ..

قال (أوشيمو) وقد رأى اتجاه عيني :

- « نعم .. لا بد أنهم وجدوا هذه الأشياء لدى
حملة سابقة ، وقد تعلموا استخدامها .. لو كانوا
يغلقون الباب بألياف مجدولة لكنا أحرقناها منذ زمن
طويل .. »

وأضاف (بسام) :

- « ثم إن الخروج لا جدوى منه .. فهناك عدد
لا بأس به من الحراس المدججين بالسلاح .. »
عدت أسأل وقد اتضحت لى الأمور نوعاً :
- « وماذا عن الأقفاس الأخرى المملأى بالمجانين
الضاحكين ؟ »

- « هؤلاء هم المرضى من أفراد القبيلة الذين

ملأتهم الأرواح .. وهم يحبسونهم هنا إلى أن يجد
الساحر حلاً لمشكلتهم أو يموتوا .. »
- « وما هو هذا المرض ؟ »
قال (شلبى) وهو ينظر خارج القفص :
- « إنه (الكورو) أيها الشاب .. ظننتك فهمت
ذلك بنفسك ! »

★ ★ ★

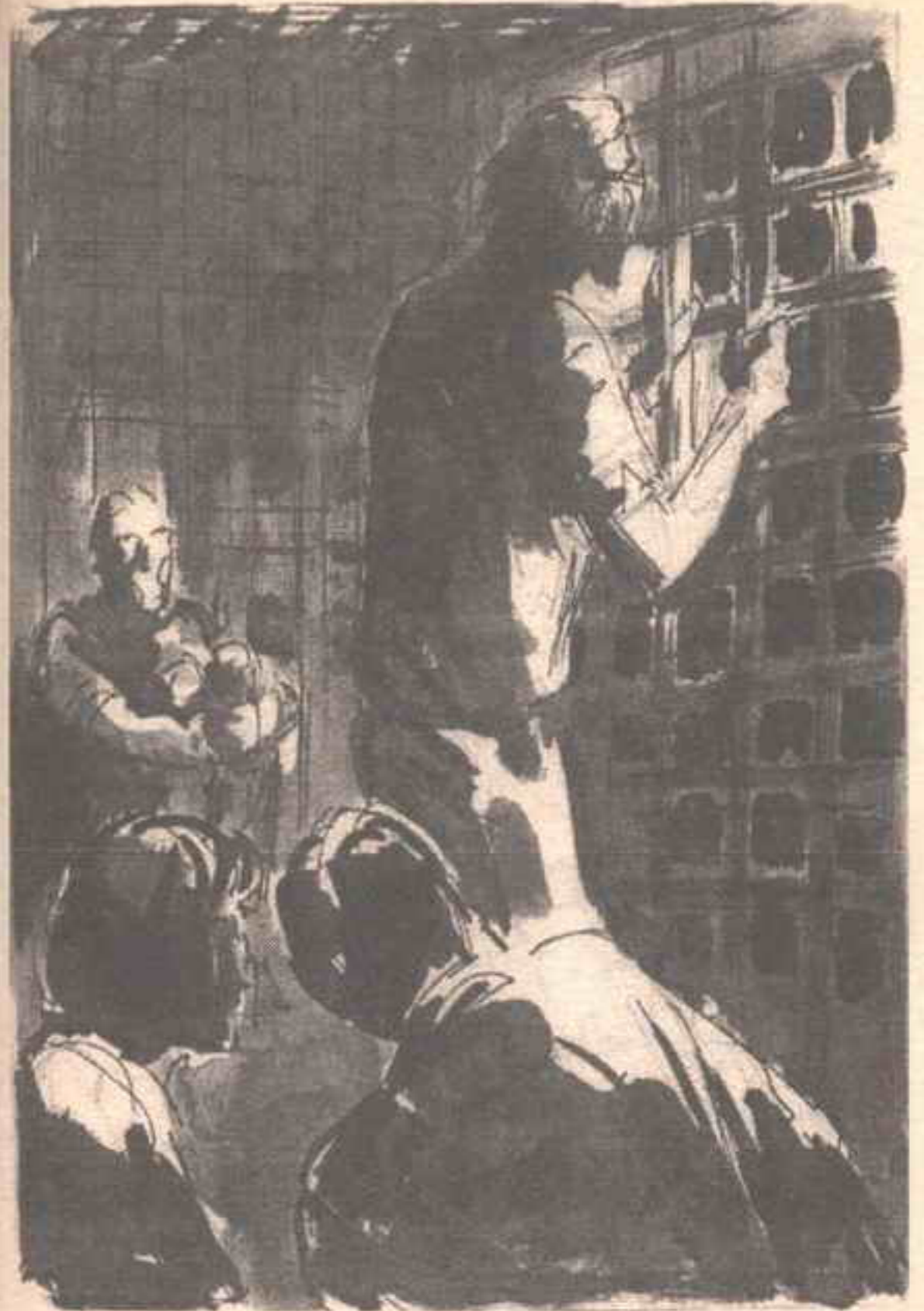
www.dvd4arab.com
Hany3H
www.dvd4arab.com

الجزء الرابع

عن الأمل الذي لا يخبو

بقلم د. برنادت جونز

« أحياناً يكون الأمل قاسياً جداً .. حتى تحت نصل
السكين ، يقول لك الأمل : لا تقنط .. الغوث آت حتماً ..
إن هذه الأشياء تحدث للآخرين فقط ! »
« الأذكىاء فقط هم من كفوا عن التطلع إلى النجاة ..
الذين عرفوا أنهم لن يعيشوا لمجرد أنهم هم ! »



قال (شلبى) وهو ينظر خارج القفص :
- إنه (لكورو) أيها الشاب ..

١- فيروسات بطيئة ..

قالت (برنات) :

- « في الدقائق التالية تحدث البروفسور (آرثر شلبي) أستاذ طب المناطق الحارة عن داء (الكورو) .. كان يتحدث عن شيء عرفه ورآه وغدا من خير المتكلمين عنه .. »

في البدء قال (أندرسن) السويدي في إصرار (وكان قد أفاق أخيراً) :

- « لا يوجد (كورو) في (إفريقيا) .. الـ (كورو) مقصور على (بابو غينيا الجديدة) .. ولم يوصف قط خارجها .. »

قال البروفسور (شلبي) غاضباً بعض الشيء :

- « الحمقى فقط هم من يرون الشمس ويصرون على أنها غير موجودة يا بني .. وبهذا الإصرار الغبي أصر اليهود والفريسيون على أن (يسوع) المسيح كاذب .. »

قال (علاء) موافقاً :

- « وبنفس الإصرار الغبي أبى كفار (قريش) أن يتبعوا نبينا في أيام الإسلام الأولى .. »

قال (شلبي) وقد اتخذ سيماء من يلقي محاضرة :

- « (الكورو) يا أبنائي هو داء ينجم عن فيروس بطيء .. هل لديكم فكرة عن الموضوع ؟ »

هزأ أكثرنا رأسه نفيًا فيما عدا (علاء) و (أندرسن) .. فقد كان الأول يعرف تفاصيل المرض من (جيديون) في (سافاري) .. أما الأخير فكانت طبيعة عمله تجعله قريبًا من هذه الأشياء ..

استرسل د. (شلبي) قائلاً :

- « إن عائلة الفيروسات البطيئة تشترك جميعًا في أنها تخرب المخ على فترات زمنية طويلة جدًا .. وفترات حضانتها لا تقدر بالأيام كباقي الأمراض .. ولكن تقدر بالسنين .. »

« لا بد أنكم سمعتم عن (جنون البقر) والذي نسميه نحن بـ (الخلل المخي الإسفنجي في الأبقار) .. هذا المرض نموذج جيد للفيروسات البطيئة التي ليست بالضبط فيروسات ؛ لكنها أقرب إلى أجسام بروتينية نسميها (بريونات) .. »

« ويوجد - كما تعلمون - مقابل آدمي لهذا المرض اسمه مرض (جاكوب - كروتزفلت) .. ولقد ثار جدل كبير حول انتقال هذا المرض للإنسان من الأبقار المريضة .. لكن هذا ليس موضوعنا .. »

« ومنذ أعوام طويلة ، عرف العلماء بوجود مرض معين في قبائل الـ (فور) في (بابو غينيا الجديدة) .. هذا المرض يدعى (كورو) .. »

« إن الفيروس - أو (البريون) - يتسلل إلى المخ .. فيهاجم المخيخ بالذات مسبباً تحلله ، ولهذا صورة باثولوجية مميزة : يمتلئ المخ بالتجاويف ، ومادة (الأميلويد) ، وتتحوّل الخلايا العصبية إلى ما يشبه الطوربيد .. »

قال (علاء) في حماس :

- « حقاً .. هذا هو ما وجدته (جيديون) في مخ العملاق المجنون .. »

مط (شلبي) شفته السفلى في اشمنزاز وقال :

- « إن (جيديون) أحمق كبير .. لكنه - والحق

يقال - يفهم في علم الأمراض .. »

كان منظرنا غريباً حقاً ونحن جالسون على الأرض

في القفص الخشبي ، نصغى لهذه المحاضرة العلمية .. لكنها كانت أهم محاضرة نسمعها في حياتنا .. لقد كانت تحدّد مصائرنا ..

استطرد (شلبي) قائلاً وهو يعيد إشعال السيجار :

- « وكما قلت تكون فترة الحضانة طويلة جداً ..

حوالي عشرة إلى عشرين عاماً .. بعدها تبدأ

الأعراض التي نعرفها الآن جميعاً :

جنون عام .. فقدان توازن .. رجفة .. تشنجات

أقرب إلى الرقص البطيء .. فقدان السيطرة على البول

والبراز .. ثم - دائماً - الضحك الذي لا يتوقف .. »

« تدريجياً يدخل المريض في غيبوبة .. ويكون

الموت الذي لا مفرّ منه خلال عامين على الأكثر .. »

« الحق يُقال إن هذا المرض نعمة من الله

(سبحانه وتعالى) .. فقد استطاع أن يخلص المجتمع

من إنسان (نياندرثال) آكل لحوم البشر كي يبقى

الإنسان المتحضر الحالي .. »

سألته وقد فاتني فهم عبارته الأخيرة :

- « لحظة .. ما دور أكلة لحم البشر هنا ؟ »

قال باسمًا :

- « السبب يا صغيرتى هو انتشار عادة أكل مخ الموتى - على سبيل الحداد - لدى قبائل (بابو غينيا الجديدة) .. وكان هذا هو سبب ظهور المرض هناك ..
وحيث استطاعت حكومات (الكومنولث) منع هذه العادة البذيئة بدأ المرض ينحسر فى عام ١٩٥٧ .. »
- « يا للهول ! »

هنا قال (بسام) وقد اتضح له الأمر :

- « هكذا إذن .. إن قبائل (الكيكويو) فى (الكامبيرون) تأكل أمخاخ الشيوخ منذ زمن .. وكان لا بد لعشرة أعوام أن تمر حتى تظهر الصورة الوبائية الكاملة التى نراها الآن فى القفص المجاور .. »

قال (علاء) وهو يمد ساقيه ليهدي توتره :

- « هذا هو ما استنتجته (جيديون) فى (سافارى) .. إن ظهور (الكورو) هنا يعنى - دون شك - أن الأمر يتعلق بنشاط لأكل لحوم البشر .. وكان علينا أن نلحق بكم للتحذير أو للإيقاظ .. وإن كنت أشك فى جدوى هذا .. »

قال (شلبى) وهو يسعل :

- « كوخ كوخ ! لقد خدعونا حقاً وأجادوا التمويه .. »

فهم يعرفون أن السلطات ستقضى عليهم أو تطردهم لو شاع الأمر .. لذا يعملون فى سرية تامة ، ويحسنون استقبال الغرباء .. إلا - بالطبع - لو أبدوا فضولاً زائداً أو قدرة على الاستنتاج .. كما حدث معنا .. »
قال (علاء) وهو ينزع شعيرات لحيته فى عصبية :
- « وكما حدث معنا .. لا بد أنهم رأونا ونحن نزيل القاذورات عن رقم الخيمة وفهموا أننا فهمنا ..
(برنات) ! لقد عادت شفتك السفلى تنزف ! »
كان هذا حق .. لأننى عضضتها وأنا أفكر فى كل الهول القادم .. مسحتها فى كتف قميصى ، وقلت :
- « إذن لهذا يعزلون المرضى خارج القرية .. »
- « حتماً .. إنهم لا يرغبون المزيد من الشوشرة .. ويعتمدون على صعوبة العثور على من يختفى فى هذه الأدغال .. »

تساءل (نظير) وهو يتفقد إباءً جليداً فارغاً :

- « هل يطعمونكم ؟ »

ضحك (شلبى) حتى شرق بالدخان ، وقال :

- « من هذه الناحية فلتطمئن ! يقدمون لنا الكثير

جداً من عجيب (الكسافا) والموز المشوى ، ولحم

٢- الأمل الذي لا يخبو ..

من بعيد راحت الطبول تدق ..
وسمعنا صوت الجوقة إياه .. يتبادل الرجال
والنساء الغناء كالعادة .. لكننا - في هذه المرة - كنا
نسمعه كأنما هو عواء الشياطين في آبار الجحيم ..
فنحن - حتمًا - نعرف ما ينتظرنا حين ينتهي الغناء ..
رقصة (جافارا) تجرى على قدم وساق ..
الطبول تدق .. والضحكات المجنونة الشبيهة
بضحكات بنات آوى ، أو الضباع تدوى من الأقفاص
المجاورة ، فتضيف إلى التوتر توترًا ..
قلت لـ (جابرييل) في سخرية سوداء :
- « هل تذكر كلامك عن (التابو) ؟ واضح أن
هؤلاء القوم لا يؤمنون به .. فلا توجد إهانة للميت
أكثر من التهامه .. »

التمعت عيناه الصفراوان في الظلام وقال :
- « أحيانًا يكون التهام الميت لدى القبائل البدائية

الثيران .. نفس المعاملة التي يلقاها الدجاج قبل ذبحه ..
لقد ازداد وزني ثلاثة كيلوجرامات فيما أظن .. وهو
خطر على صحتي كما تعلم .. »

هنا نهض (بسام) نافذ الصبر ، وقال :
- « حسن .. لقد انتهينا من الجانب العلمي
للموضوع وبقي الجانب العملي .. لا بد من الهرب ..
لكن كيف ؟
حقًا .. كيف ؟



www.dvd4arab.com
Hany3H
www.dvd4arab.com

هو ذروة التقديس .. فهم يؤمنون أن هذا ينقل سحره
لهم ويحميهم من أذاه .. »

- « جميل ... »

آه لو قدر لي أن أصير شبحاً .. لجعلت حياة هؤلاء
الأوغاد جحيماً ، ولما أمن واحد منهم على أهله أو
سكنه !

ونظرت نحو (علاء) فوجدته يناول شيئاً
لـ (أوشيمو) ، وشيئاً لـ (بسام) .. لم أتبين ما هو ..
ولكن ما أهمية ذلك ؟

وسمعت (بسام) يسأله :

- « فقط ثلاث ؟ »

- « لم أجد فرصة لما هو أكثر .. »

لم أجد بدوري فرصة لما هو أكثر .. لأننا لمحنا
مشاعل القوم وسمعنا غناءهم .. كانوا عاندين بعد
الحفل ..

لقد رأينا هذا المشهد مراراً من قبل .. لكنها المرة
الأولى لـ (علاء) وزملائه ، وعرفنا ما سيلي هذا !
وعلى ضوء المشاعل الرهيب دنا الزعيم في تؤدة ،
يمشي كجنرالات الحرب بين الأقفاص ..

أخيراً توقف أمام قفصنا .. ولمحت وجهه عكس
الضوء كأنه صخرة من الغموض .. ثم قال لأحد
رجالته شيئاً ما ، وناولته ما أخذه من قلادة حول
صدره ..

دار المفتاح في القفل .. كريك كلاك !

ثم انفتح الباب ، وأطل الرجل برأسه إلى الداخل ..
شعرت بقلبي يقف .. يثب إلى فمي ، ونظرت إلى
ناحية أخرى كي لا يراى .. لقد تظاهر كل من
بالقفص بأنه مشغول بشيء ما ..
لكني عرفت الحقيقة .. عرفت بفؤادي قبل أن
أسمعها ..

لقد كان يشير إلى ويقول بصوته الغليظ الأمر :
هذه ! لم أسمعها يقول (هذه) لكن صوته جعلني
أسمع اللفظة مترجمة دون مترجم .

وشعرت بيد غليظة تمسك معصمي ..

صرخت .. توصلت .. زحفت على ركبتى وتمسكت
بمعصم (علاء) :

- « (علاء) ! لا تدعهم يأخذوني ! اضربهم ! »

لم يكن الوقت مناسباً للموت في كبرياء كالمملكات ..
كنت مذعورة حقاً فاقدة توازني حقاً ..

- « (علاء) ! أنت تحبني .. أليس كذلك ؟
امنعم ! »

حاول التشبث بي ، لكنهم جذبوني بقوة أكثر ..
وضربوه بعنف أهوج فسقط على الأرض ، وسمعته
يقول في هستيريا :

- « لا تخافي يا (برنادت) .. كل شيء تحت
السيطرة .. كل .. »

ثم نسي الفرنسية ، فراح يصرخ بالعربية .. ولم
أفهم حرفاً ..

كل شيء يتم كأنه حلم ..

ضوء المشاعل .. الصخرة بالخارج .. الصخرة
الملوثة بدم جاف ..

يريحون عنقي على الحجر .. ما زلت آمل .. هذا
ليس حقيقياً ..

يضعون أداة تثبت رأسي للخلف ..

الجلاد - أم هو الزعيم ؟ يرفع سيفه .. أرى القمر
المتآكل من وراء الغمام .. أحقاً هو آخر شيء أراه ؟
سينقدونني .. بالتأكيد سيفعلون .. أليس كذلك ؟

★ ★ ★

فيما بعد عرفت أن (أندرسن) مديده إلى سرواله ،
ورفع ثنيته ليخرج شيئاً ما .. وفي الظلام هرع لباب
القفس وأطلق ثلاث رصاصات .. حدثت فوضى عامة
وسقط الزعيم على الأرض ..

في اللحظة ذاتها كان (علاء) و(بسام)
و(أوشيمو) يثبون بدورهم إلى باب القفس الموارب ..
ودوت ثلاث انفجارات مكتومة ..

وصرخ (علاء) وسط الدخان الحارق :

- « اخرجوا إلى الهواء سريعاً ! هذه قتابل مسيلة
للموع ! »

كان هناك جحيم من الدموع والسعال ، وفوضى
عامة ..

لكننا استطعنا بعيون محمرة أن نجد بعضنا ..
(بودرجا) لم يبرح القفس بعد ، و(نظير) في مكان
ما وسط الدخان ..

لكننا خرجنا ..

أنا تحررت من كل من كانوا يكبلونني ، ورحت
أركض لا أكاد أتبين موضع قدمي .. والغاز اللعين
يحرق عيني وأغشية أنفي بألف نار .. حقاً لا يمكنني
التنفس .. حقاً عاد الدم يسيل من شفتي ..

لكنى كنت سعيدة .. حرة ..

صرخ (شلبى) وهو يشير إلى السماء :

- « تماسكوا يا أبنائى ! لقد جاءت النجدة ! »

وفى السماء - فوق سحب الدخان - كانت هناك
ثلاث طائرات هليوكوبتر تسلط كشافاتها على مسرح
المعركة ..

وراح (الكيكويو) يهرعون - فاقدى الرؤية تقريبًا

- مبتعدين عن هدير المروحيات الثائرة .. تاركين
ضحاياهم بلا عون ..

ووسط الدخان بدأت الوحوش المعدنية تهبط فى
الساحة الخالية ، واحدة تلو الأخرى ، واستطاعت
العواصف التى أحدثتها المراوح أن تزيح الدخان
بعيدًا ..

ورأيت بعينين دامعتين جنودًا سودًا يثبون من
الطائرات حاملين بنادقهم الآلية ، وينطلقون نحو
القرية ..

على باب الطائرة برز رجل إفريقى ضخم الجثة

يرتدى (البيريه) .. وهبط إلى الأرض فى تؤدة ..

اتجه نحونا .. وأدركت أنه ضابط على الرتبة ..

ضابط شديد الفخر بنفسه كأغلب الأفارقة حين
يهيمنون على مواطنيهم ..

صافح (شلبى) و (بستام) ثم لوح للباقيين بذراعه ،

وقال بصوت غليظ ولهجة إفريقية مميزة :

- « يا لها من فوضى ! لقد خشينا أن نجىء

متأخرين يا سادة .. »

ثم رأى عدم الفهم فى عيوننا فأضاف :

- « أنا اللواء (موتزينجا) .. من السلاح الجوى

الكاميرونى .. »

قال (علاء) شارحًا الأمر ، وهو يمنع أنفه من أن

يسيل :

- « لقد نجح البروفسور (بارتلييه) فى إقناع

السلطات بخطورة الموقف ..

- « كان لدى جهاز إرسال يرسل إشارة كلما مرت

ست ساعات .. ومعنى ألا تصله الإشارة أننا نواجه

خطر الموت .. بالطبع لم أرسل له شيئًا منذ أربع

وعشرين ساعة .. »

سألته وأنا أرتجف رعبًا وإرهاقا :

- ولماذا لم تخبرنا ؟ لماذا ضننت علينا بالأمل ؟ »

- « لأنه من الوارد جدًا ألا ينجح في إقناع السلطات .. والأمل الكاذب شيء قاس حقًا .. »
قال اللواء (موتزينجا) وهو يشعل لفافة تبغ :
- « لقد بذل البروفسور جهودًا خارقة في الساعات الماضية ، وقد قمنا بالتحقيق فوق المنطقة ، لكن الدخان هو ما هدانا إليكم .. الحق أنكم قمتم بعمل لا بأس به .. »

قال (أندرسن) وقد استعاد بروده التقليدي :
- « هذا لا شيء .. لقد قام (علاء) بالنوم بعدما حشا جيوبه بالفتابل المسيلة للدموع ، أما أنا فلم أستطع النوم إلا بعد إخفاء مسدس في جوربي .. المشكلة هي انتظار اللحظة المناسبة ، وقد منحناها لنا (برنات) .. »
أضاف (شلبي) وهو يعيد إشعال آخر ثلاثة سنتيمترات من سيجاره :

- « كان هذا سيعطل المتوحشين بعض الوقت ، لكنهم كانوا سيتغلبون على المفاجأة في النهاية لو لم تصلوا إلينا »

كنا في أسوأ حال .. وبدت لنا طائرات الهليكوبتر

ملائكة سوف تحملنا إلى النعيم حيث لا (كيكويو)
ولا (كورو) ..
وإذ راحت محركات الطائرة تهدر ، سمعت (شلبي)
يسأل الجنرال :

- « هل ستبيدون هؤلاء (الكيكويو) ؟ »
قال الجنرال وهو يقدم لفافة تبغ للبروفسور :
- « في الغالب لا .. سنقوم ببعض حملات تأديبية ثم نقوم بإعادة توطينهم قرب الحدود .. وربما نطردهم إلى (الكونغو) .. »
- كانت طائرة الهليكوبتر سوفيتية الصنع ، تفتقر إلى وسائل الراحة ، وكان رأسى على الأرض مباشرة يترجرج معها في كل ثانية ..
لكني أسلمت عيني للنعاس ..
وحلمت .. حلمت بعوالم لم أرها قط .. عوالم لها رائحة الليل الإفريقي ..

★ ★ ★

ما هو مصير (الكيكويو) المفترسين ؟
هل سيعودون لممارسة طقوسهم الدينية الرهيبة ؟
هل ستدوى طبول رقصة الموت من جديد فى
قراهم الوليدة ؟

هل ينتهى وباء (الكورو) بعد ما يكفون عن
التهام الموتى ؟

كنا نتمنى إجابة هذه الأسئلة .. لكن هذا يبتعد
كثيراً عن نطاق عملنا فى (سافارى) ..

د. برنادت جونز

أنجاواتديرى



www.dvd4arab.com
Hany3H

www.dvd4arab.com

سافاري

مغامرات، طبيب شاب في جاهد
لكم يظل حياً ولكن يظل طبيباً

روايات
مصرية
الحب

رقصة الموت

إن الأفارقة يرقصون دوماً .. يرقصون
للفرح ويرقصون للحزن .. يرقصون للحب
ويرقصون للمقت .. يرقصون للحياة
ويرقصون للموت .. ولكن ما سر رقصة
ال (جافارا) هذه ؟ .. ما هو الشيء الرهيب
الذي تتجمد له عروقك ، ويملاً لياليك
بالكوابيس ؟



د. احمد خالد توفيق

www.dvd4arab.com
Hany3H

العدد القادم
تجربة مُحَرِّمة

الناشر
المؤسسة العربية الحديثة
للطباعة والنشر والتوزيع
100 - 100 - 100
100 - 100 - 100

الشمس في مصر ١٥
ومناجاة بالدولار الأمريكي
في سائر الدول العربية والعالم